213

أسامة أنور عكاشة

# شقّ النهار

رواية

Ahmed Mady

http://www.maktbtna2211.com/

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

# شقُّ النّهار

(27 يوليو 1941 – 28 مايو 2010)

أديب مصري كبير، وكاتب روايات وأفلام ومسرحيات،

وهو أحد أهم المؤلفين وكتّاب السيناريو في الدراما المصرية والعربية،

وتعتبر أعماله التلفزيونية الأهمّ والأكثر متابعة في مصر والعالم العربي.

كان له مقالٌ أسبوعيّ في جريدة «الأهرام»، واشتهر كونه كاتب أكثر المسلسلات في مصر والشرق الأوسط شعبية.

ورواية «شق النهار» هي آخر أعماله التي صدرت بُعَيْد وفاته، رحمه الله، بأيام قلائل.

S.R. 19
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ريال

9 789953 279305

*Friday*
*6/4/2012*
*Riyadh*

# النفوذ اليهودي

## في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية

الأفعى اليهودية استولت على
وَسَائل الإعلام والسياسة
وَهيَ في طريقها للسيطرة عَلى العالم..

فؤاد بن سيّد عبد الرحمن الرفاعي

أسامة أنور عكاشة

# شق النهار

رواية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

## (1)

## سراية الباشا

عدت لبيت الأسرة القديم وفي ذهني أن أقيم مؤقتاً ولحين أعثر على مستقر دائم! لم يكن أمامي حل آخر بعد أن خرجت من مسكن الزوجية بحقيبة ملابسي.. إثر اتفاقنا على الانفصال!

.. ولم يكن في بيت الأسرة حين عدت إليه غير العمة «نجية» وابنها «الشيخ عادل» الوحيد الذي بقي معها من أولادها الذين تفرقوا حسب زيجاتهم وأعمالهم..

بقي الشيخ عادل وأحسست بصدق فرحته بعودتي حين عانقني بحرارة هاتفاً: كنت أعرف أنك ستأتي اليوم وقلتها لعمتك!

أمَّنت عمتي نجية على قوله «أدهشني الأمر فلك زمن لا نراك ولم نعرف جديداً يجعلنا نفكر في احتمال عودتك».

سردت عليها ما حدث.. ربتت على كتفي مواسية أو

مشجعة لا أعرف.. فقط أتتني كلماتها الحانية:

- لا يسوؤك الأمر! فمنذ ربع قرن وأنا أقولها لك.. هذه لم تكن لك.. والبعد بينكما أبعد من المسافة إلى المريخ! ولعلك قاطعتني بسبب ما قلته.. ولعلك ظننت أنني نقمت عليها لرغبتي في تزويجك من بثينة بنتي.

- بثينة؟ ياه؟ ما هي أخبارها؟

- سعيدة بزوجها وأولادها هناك في ليبيا!

.. كانت بثينة تصغرني بعامين اثنين.. وكانت تعيش تقريباً معنا في هذا البيت حين قضت سنوات مع زوجها الموظف بالسد العالي في أسوان.. يعني تربينا معاً تقريباً فكان بيننا ما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال من نمو مشاعر الودّ الأخوي وحب الأشقاء.. وأذكر حين حذّرني أبي من كثرة اللعب معها وتجاوز الحدود في الهزار.

- دي زيها زي أختي ألفت!! قلتها لأمي حين كررّت التحذير.. ولكني دافعت عن بثينة بحماس حين اتهمتها عمتي في إحدى زياراتها بأن «إيدها طولت» وأحسست بالحزن حين انزوت بثينة في حجرتها تبكي! كيف شاع إذن في أوساط العائلة أن بثينة موعودة لي وأنا لها؟ «هل تحبينني يا بنت؟».. «ولا طايقاك!».

في أول ليلة جلست مع الشيخ عادل في الشرفة المطلة

على حديقة سراية الباشا.. أطلق عقال ذكرياته..

ـ تعرف يا أستاذي.. ليلة زواجك.. حاولت بثينة الانتحار؟ وانتهت الليلة بغسيل معدة تبعته علقة ساخنة.. (المجنونة!.. لم أحبها قط.. ولم أتصور أنها يمكن أن تبادلني عاطفة الانجذاب الجنسي!.. كنت مشغول البال بالنجمة البعيدة.. هناك.. خلف شجيرات الحديقة..).

ظلت سراية الباشا مهجورة زمناً.. وقبلها كانت هناك طفلة..

يا الله! أي طفلة؟.. صبية ربيعية في الثالثة عشرة.. شقراء.. لم أقترب منها لدرجة تمكنني من تمييز لون عينيها.. ولكنني ظننت دائماً أنه أخضر.. جننت بطيف يخطر كأميرة أحلام ترقص فوق السحاب.. سألت أختي الصغرى «ألفت» عنها.. فاتسعت حدقتاها في دهشة أقرب إلى الاستنكار..

أفق يا آبيه.. أنها أصغر منك بأكثر من عشرين عاماً..

ولم أعلم حتى الآن هل ذكرت «ألفت» شيئاً من حديثنا إلى بثينة؟.. لم أشك في الأمر إلا أنني تذكرت بعدها وبعد أن تزوجت أن مقاطعة بثينة لي وابتعادها عني وانقطاع تلك العلاقة الأخوية الغريبة من طرفها على الأقل بدأت قبل زواجي بفترة!.. وعندما تذكرت صوَّر لي غروري أنها كانت مغرمة بي! لكنها الآن قد ابتعدت كثيراً.. حتى ملامحها لم تعد بذلك الوضوح القديم! (عمن أتحدث؟).

الواقع أن ملامح الأخرى لم تكن يوماً واضحة في ذاكرتي! لم أكن أراها إلا عن بعد.. إذ لم يكن للحديقة باب يفتح على شارعنا.. فهي حديقة خلفية.. يرتادها الطيف الأشقر في صباحات شتوية.. والهالة الضبابية تغشى عيني.. أكاد أميز فقط خصلات الشعر الذهبي ينحدر على الجبين والخدين.. إلى الوجه المستغرق في قراءة مجلة ما أو كتاب لا تظهر معالمه..

دائماً ما كانت تجلس على تلك الدكة الخشبية تحت شجرة «الجوافة».. ولم أكن أراها إلا على هذه الصورة.. وكان ذلك من ربع قرن يا أستاذي!.. ومع ذلك عادت لتجلس كل نهار على نفس الدكة وتحت نفس الشجرة!

ـ تقول عادت؟.. وكيف تسنَّى لك أن تراها وأنت كما أنت؟ أقول عادت لأنها عادت.. بعد عشرين عاماً.. يقولون إنها مرت بتجربة زواج تعسة.. وأظنهم محقين.. فهي تبدو حزينة دائماً. ستقول مرة أخرى وكيف تراها؟.. أراها يا ابن خالي كما أراك وكما أراكم جميعاً... ولم تسمّونني الشيخ عبثاً! كان الأمر حقيقياً فيما يخص الشيخ عادل.. وقد تعوَّدنا دائماً على تميزه واختلافه.. وأرجعنا الأمر أحياناً إلى قوة الحاسة السادسة لديه..

وكان أبي كلما أدهشه جديد يأتي به ابن أخته الضرير يردد مأثورته المفضلة «كل ذي عاهة جبار» وكان الشك يراودنا في أحوال كثيرة حين يتعرف على أحدنا من وقع خطواته فقط أو يجلس ليشاهد التلفزيون ويعلق على ما يراه..

استغرقت في النظر إلى «سراية الباشا» وقد تملكتني دهشة الاكتشاف.. كان هناك بالفعل ضوء يتخلل ضلفتي الشيش في إحدى غرف الطابق الثاني وخالجني أمل مراوغ في إمكانية انفراجهما تحت وطأة حر الليل.. وتذكرت المرة الأولى التي جئت فيها زائراً بعد زواجي وكيف لاحظت أن السراية كلها مغلقة ومظلمة.. سألت يومها ملحاً.. اندهشت أمي رحمها الله وأخبرتني:

لقد رحلت أسرة المستشار «إلهامي عبد الحميد» كلها إلى الإسكندرية بعد ترقيته ونقله رئيساً لمحكمة استئناف أو منصب مشابه.. والإسكندرية تبعد كثيراً عن حلوان!!

لا أعرف لم أحسست بتلك الغصة.. وقد انتقلت بدوري إلى حياة جديدة تزوجت فيها.. أتراه نوعاً من الحرص على بقاء أطر الصور القديمة معلقة على جدار الذكريات؟

ـ وهل عادت الأسرة بعد وفاة عائلها؟

بادرت عادل بالسؤال وأنا أعرف أنه لا يملك الإجابة ولكنه خيَّب ظني وطفق يكرر تجلياته الغامضة.

ـ رجعت الأم مع «نهير» وحدهما.. وباقي البنات قد تزوجن وتفرقن..

ـ أذكر الآن بنات سراية الباشا الأربع.. وساورتني موجة فضول جارفة.. بينما استمر الشيخ عادل يفرغ ما في جعبته..

- نهير تورطت في مأساة عمرها.. حاولت بكل ما أتمتع به من قدرة على الإلحاح و«الغلاسة» أن أعرف منها ولكنها ترفض بعصبية أن تتحدث في الأمر.. أما الهانم والدتها.. ووجدتني أقاطعه ذاهلاً: أو تعرفهم شخصياً؟

- وأزورهم باستمرار!! الشيخ عادل في سراية الباشا!.. كأن الدنيا كانت تسير في مسار لا أعرفه؟!.

## (2)

## وقالت الشجرة

كأني سمعت صوتك تتحدثين وتكملين حديث الشيخ عادل، أو ربما تستَّر هو خلفك وراح يمارس هوايته القديمة في التلصُّص والتخفي.. هو كما تعرفين يجيد التقمُّص، وقد حاول مرة أن ينخرط في سلك التمثيل، بل التحق فعلاً بفرقة من هواة التشخيص، لكن المحاولة، برغم دأبه وإصراره، أسفرت عن خيبة محبطة زادت من مرارتها كلمات العمة نجية: يا بني انظر لحالك وابق فيما أنت فيه، لماذا تحاول أن تعاند أقدارك.. وغيرك يسعى لما يصلح فيه؟!

ـ وما الذي أصلح له يآ ست أم عادل؟

ـ لماذا لا تحاول تجويد القرآن؟ لقد سمعتك ذاك النهار تدندن بغنوة عبد الوهاب عن الحبيب المجهول، وأحببت صوتك وقد كاد يبكيني!

وسكتت العمة راضية ولم يعلق الشيخ عادل، لكني

أيقنت أنه رأى دموعها، حين انطلق صوته كخرير ماء يتدفق في جدول ربيعي.

«حبيبي ياللي خيالي فيك.. ياللي حياتي حاتكمل بيك.. مين أنت؟ ما عرفش! فين أنت؟ ما عرفش! ما عرفش أمتي وفين ألاقيك.. حبيبي!»

ما كاد ينهي «قفلة» المذهب حتى رأيت مصباح المساء يضيء ممشى الفناء الخلفي لسراية الباشا، ورأيتها تخطر بخطواتها المتمهلة في طريقها إلى المقعد الذي ينتظرها أسفل شجرة الجوافة..

ترى.. هل سمعت غناء الشيخ عادل؟ بحثت عن ابن العمة فلم أجده.. وقالت لي الحاجة نجية: إنه على عهده القديم: يختفي بلا سبب، ويعود بعد أيام ليروي لهم طرفة من طرائف مثيرة تصادفه دائماً كلما اتخذ الطريق.. وأي طريق اخترته هذه المرة يا شيخ عادل؟

- تعرف يابن خالي أن الدنيا براح، وبلاد الله واسعة، وأنا لا أختار بل أُختار.. لا تنس وأنت تكتب أن الهمزة عليها ضمة وأن الضمير فيها مبني للمجهول! ثم ضحك في الوقت الذي أتاه الخبر على لسان العمة نجية:

- شيخ عادل احذر من بعث يسأل عليك كل يوم ويستعجل عودتك!

- يا أمي تعرفين أن الأحبة كثر.. ولكني أرجح أنهم

جيراننا الأعزاء في سراية الباشا!

وبينما كنت أشرد مفكراً وطائف من غيظ يخالجني كانت عمتي تحذره من ظنون الناس.. فالسراية لا يوجد بها إلا نساء.. وتردُّد أي رجل من غير أهلهم عليهم لا يليق حتى ولو كان الشيخ عادل! عبس الرجل لحظة ثم تساءل في نبرة حزينة: ماذا تعني حضرتك بجملة حتى لو كان الشيخ عادل؟ عموماً سأحل لك المشكلة! فلتذيعي بين الجيران أنني أتردد على السراية لأقرأ السورة، فهي مهنتي.. وأنا الشيخ كما تدعونني!

أشفقت على ابن العمة لما اختلج صوته من مرارة حزينة.. وحاولت، مجتذباً انتباهه ومسرياً عنه، أن انتقل بالحديث إلى ملعب آخر يحب أن يجري فيه وحده ويفرض عليه سلطته: سمعت من صديقك صاحب مقهى «زهرة حلوان» أنك لم تعد ملك الشطرنج المتوَّج في المنطقة، وأن الله تعالى قد رماك بغلام لم يتعد الثانية عشرة، مسح بك كل رقاع الشطرنج حتى حرم عليك غشيان المقهى.. فهل الأمر صحيح؟!

- تريده صحيحاً؟ فليكن.. وإذا كان صحيحاً فالجميع في الحي يعرفون أنني أتعمد الخسارة أمامه لأنه يمتُّ بصلة قربى لأهل السراية!!

إذاً فالشيخ عادل يُجيد، وهو فاقد البصر، لعبة الشطرنج! والطاولة.. الدومينو.. وورق اللعب المصمم برسوم

وأرقام برايل! ترى؟ هل أصابني مس؟ وهل حقاً ما سمعت؟ إنها شجرة الجوافة تتحدث.. تهمس هذه المرة في أذني:

نهير أيضاً تحب اللعب معه! برغم أنه كان، بشكل من الأشكال، أحد المتسببين في المأساة التي عاشتها!

لا أعرف لماذا تنامت داخلي مشاعر الضيق.. وربما الغضب تجاه الشيخ عادل، خاصة حين أكتشف كل يوم أنه على علاقة ود ومتنامية منذ زمن من أهل السراية، وأنه يكاد أن يصبح واحداً منهم!

وخطر لي أن عودتي لمنزل الأسرة ربما لم تصادف هوى عنده! كان عالمه قد استقرت حدوده في المكان وأهله، ولم يكن مستعداً لوافد يقاسمه سلطة الرجل، وجرني الخاطر إلى سؤال ظللت أهرب من مواجهته والإجابة عنه زمناً:

لماذا أتيت إلى بيت حلوان بالذات؟ ألم يكن بمقدورك أن ترتب لنفسك سكناً في قلب المدينة، أو في أطرافها القريبة؟ هل هو نوع من الحنين إلى مرتع الصبا، وبكور الشباب؟ أم هو انتباه لحق في ملكية البيت الذي استضاف أبي فيه شقيقته وأولادها بعد استشهاد زوجها في معركة «رأس العش» في صيف العام السابع والستين؟ أم لأنك، وقد اعتدت على الحياة داخل أسرة تحظى فيها بتسهيلات وخدمات مجانية تفرضها قوانين العائلة؟ الحقيقة أنني لم أشأ تصديع رأسي بمحاولة الإجابة، وانسحبت سريعاً من مناقشة موقعي داخل

أسرة عمتي نجية..

تضاعفت الإضاءة في الحديقة فجأة.. ونهضت نهير وقد بدت متهللة.. لتلاقي الشيخ عادل وقد صحب غلاماً توافق سماته ما حكي عن فتى الشطرنج النابغ، وسرعان ما اندمج ثلاثتهم في حوار باسم تتخلله الضحكات، ثم تركوا الحديقة إلى الداخل.. ولم تمر دقائق حتى نشطت نسائم صيفية تحولت إلى ريح خفيفة لكنها حركت أوراق شجرة الجوافة ومن حفيفها سمعت الهمس يداعبني.. ويسألني: لا بد لك من أن تعرف حكاية الشيخ عادل مع الجيران! بحثت عن عمتي نجية! وجدتها منهمكة في تحميص حبات البن الأخضر في محمصة تركية جلبها معه من الشام في إحدى سفرياته.

ـ تفرغي لي قليلاً يا عمة.

على الفور أوقفت المحمصة ورمقتني بفضول يشوبه ظل من القلق:

ـ تحت أمرك يا ننّ عين عمتك.. منظرك يوحي بأن هناك أموراً خطيرة تريد أن تحدثني عنها..

ـ هل هناك مشروع لزواج عادل من نهير؟

بدهشة عارمة تكاد تبلغ حد الاستنكار:

ـ أي فكرة هذه يابني؟ إذا كان هناك مثل هذا المشروع فلا علم لي به..

ـ إذن فما هي حدود علاقته بأهل السراي؟

ـ لا.. حكايتك حكاية الليلة يابن أخي! قم.. أخز الشيطان وتوضأ وصل ركعتين لله حتى يعيد إليك صوابك.. وفي الصباح.. تكلم عن الزواج والحب والهم الأزلي.

## (3)

## حديث الليل

عاد الشيخ عادل وآذان الفجر يتهادى من المسجد القديم.. مرفرفاً في هدأة السكون بلا مكبِّر صوت؛ فمؤذن ذلك المسجد كان يرفض دائماً أن يستخدم أي آلة في إيصال صوته إلى تلك المنطقة من الحي. لم يصدر الشيخ ضوضاءه المعتادة بل دخل تلك الليلة على أطراف أصابعه وكأنه موقن من استغراقي في النوم حتى فوجىء بسؤالي: أين كنت يا مولانا؟ سمعت صوت ارتجافة المفاجأة واصطدامه بقائم السرير ثم لهاثه وصوته المتهدج يهتف في روع: فعلتها معي يا ابن خالي منَّك لله.

ـ وما الذي روَّعك لهذه الدرجة وأنت من يدعي أن لا شيء في العالم يستطيع مباغتتك وإفزاعك؟

ـ أحسست بك نائماً وسمعت أنفاسك تختلط بالغطيط.

ذهب عادل إلى مفتاح الكهرباء وأضاء الحجرة ..لِمَ

فعلتها وأنت في غير حاجة إليها؟

لم يعلِّق على الملاحظة السخيفة وجلس على فراشه المقابل: إذا لم يكن مهمّاً أن تراني فمن المهم لي أن أراك.. والآن جاء دوري لأسألك: ما الذي أسهدك وجعلك تنتظر رجوعي إلى ما بعد الفجر.

- أو تظنني سهرت أعدّ النجوم في انتظار طلعتك البهية؟

ضحك عادل ضحكة مليئة بإيحاءات تثير القلق. تركته حتى ينتهي وقبل أن أسأله محتجاً عن سبب ضحكه بادرني هو بلهجة جافة لا أثر فيها لسخرية أو معاتبة:

- أعرف أن ما يهمك هو حديث الخطوبة المزعومة بيني وبين نهير وفي الحقيقة تملؤني الدهشة لموقفك الغريب، فالفتاة كانت طفلة في آخر أيامك هنا وحين عدت كان فارق السن بينكما قد تضاعف وها أنت وقد أشعل الشيب رأسك بدأت تطارد الأحلام المستحيلة ويضايقك بالطبع أن ترى العلاقة تتوثق بين ابن عمتك الضرير وبين فتاة سراية الباشا.

لم أرد ولم أغضب فما قاله الشيخ عادل لمس وتراً مشدوداً وإن كان خفياً كامناً في ركن بعيد من أركان النفس.

أرى الآن تلك الزينات والمصابيح الملوَّنة تتخلل أفرع شجرة السراية، وأسمع صوت الموسيقى التي تعزفها فرقة خاصة ربض أعضاؤها في أرجاء الحديقة مختلطة بأصوات الأحاديث المنتشرة بين المعازيم في الهول والشرفة والحديقة.

قيل لي يومها إن إحدى فتيات جارنا الباشا تتزوج وإنهم استحضروا لها أكبر الفِرَق لإحياء الليلة.

لم أعبأ ولم يستطع فضولي أن يطارد الحديث، اكتفيت بنظرة ألقيها من نافذة حجرتي قالت لي ليلتها أختي ألفت: آه لو رأيتها يا أبيه نهير هذه مًمن يطلق عليهم حورية من حوريات الجنة.

قلت لها باستهانة: أعرفها ألم تذكريني يوماً بأن عمري ضعف عمرها عموماً فأمرها لا يهمني الآن كما لم يهمني من زمان ولكن بالمرة أخبريني من تزوجت؟ وقالت ألفت: الشيخ عادل له صديق دكتور طبيب تعرف عليه في حلقة ذكر أعتاد أن يقيمها طائفة من الصوفية الذين ذاع صيتهم في حلوان وما حولها، وتحول صاحبنا الطبيب إلى شخصية معروفة يكاد أن يكون واحداً من الدعاة الذين امتلأت بهم الساحة وأصبحوا يديرون نوعاً من التجارة الرابحة لذا هرع الشيخ عادل يرشحه لمداواة نهير من الوعكة التي ألمَّت بها وحار الأطباء في علاجها وكانت المَرَّة الأولى التي يدخل فيها الدكتور طارق العسكري، ولكنها لم تكن الأخيرة فقد تعددت الزيارات وتسارعت الأمور حتى وصلت إلى المدى المقدور حين تقدم الشيخ العسكري طالباً يد نهير التي شفيت وارتبطت مشاعرها بوجود الرجل في حياتها.

- وأين كنت وقتها؟

- كنت قد أنجبت طفلك الأول وأنت تخدم في أسوان

تذكرت أسوان.

- وتذكرت البيت المطل على النيل قرب الخزان حيث ولد ابني الأول. كانت كل مفردات الحياة ما زالت جميلة وكان العلاقة بيني وبين أم الأولاد ما زالت بخير، وكان بعدنا عن العاصمة وإفلاتها من سيطرة الأم عاملاً أساسياً في استقامة الحياة بيننا. ثم باغتنا القدر بمرض أصابها فجأة على غير انتظار قال الأطباء إنه نوع من الاكتئاب يصيب بعض النساء عقب الحمل وأن علاجه بسيط. كانت قد أنجبت الطفل الثاني بعد مشاجرة طويلة بيننا لما اعتبرته أنا نقضاً للاتفاق الذي يقضي بأننا سنتوقف عن الإنجاب بعد الطفل الأول. كانت بداية لا مفر منها إذ تشققت الأرض وأخرجت ما تحت أديمها: كثير من الوساوس والهواجس والشكوك تأسست عليها حياة زوجية فاشلة لم تتحمل تجربة المرض.

فبعد أشهر تفاقم وضعها الصحي وأفتى أطباء آخرون بضرورة نقلها لمستشفى الأمراض النفسية، لكنها رفضت وبإصرار يبلغ حد الجنون. وشهد الجيران في أسوان كما شهدت أقسام البوليس الكثير من المهازل فتارة تتهمني بخطف أولادي وبعدها تدعي أنني حاولت قتلها وأبلغت أنا بنفسي عن محاولتها إشعال النار في المسكن وإلقائها لأنبوب البوتاجاز في مسقط العمارة وظل الأمر على تفاقمه حتى بات بقائي في أسوان ضرباً من المستحيل.

أفقت من شرودي لأنتبه لما تقوله ألفت وهي تسرد المأساة التي تورطت فيها العروس ذات الوجه الملائكي بعد زواجها من الشيخ العسكري.

## (4)

## سنوات الصبر

فيما بعد.. حين عرفت نهيراً عن قرب.. سمعت منها حكايات السنوات التعسة التي أمضتها في أسر طارق العسكري الذي اكتشفت حقيقته في أول أيام الزواج، هذا الطبيب الوسيم ذو الوجه المبتسم دائماً إلا من تقطيبة يسيرة ظلت ماثلة بين حاجبيه، وزبيبة صلاة تعلو جبهته مؤكدة ما سمعته عنه من التزام ديني وارتباط بنشاط دعوي جعله يبدو في عينيها كما بدا في عيون الأهل والجيران، رجلاً تقياً، متديناً يعرف الله!!

ولم تتصور نهير للحظة واحدة أن هناك رجلاً يستطيع التمويه عن نفسه إلى حد التناقض والازدواجية بكل هذه البراعة الشيطانية، أجل فقد صارحها إبان إحدى نوباته السادية أن به مسّاً من الشيطان زوَّده به الله ليقوّيه على أحابيل وخداعات الأبالسة الذين يتلبسون البشر ويغوونهم على العصيان، إياك أن تغتري بجمالك فهو أقصر الطرق إلى

الوقوع في الغواية، والمرأة التي تنتشي بجمال الجسد هي عطية الشيطان!!

كل كلمة بلطمة وركلة وقبضة ضاربة، وحين يغمى عليها، تفيق بعد حين على دموعه الساخنة وهي تتساقط على وجهها وقد ركع بجوارها مبتهلاً نادماً.

- لا تغضبي فأنا أساعدك وأحاول طرد الشيطان من جسدك.

هرعت إلى أبيها!! استمع إليها في حزن (أهكذا يكون حظ ابنته الأثيرة المدللة) ولكنه يكظم حسرته بداخله ويمسح على شعرها ويقبل جبينها.

- الصبر يا نهير!! لكل رجل عيوبه، وعليك أن تتعاملي مع عيوب زوجك وتحاولي علاجه بالتدريج. ولم تكن مقتنعة بأن هناك من يمكنه علاج الرجل، فقد أيقنت أنه مصاب بمرض لا شفاء منه.. ليلة أن أحضر معه إلى المنزل تلك اللفافة وفتحها ليخرج منها الكرباج وطلب منها أن تضربه به بعد أن تقيِّد يديه وحين رفضت ضربها هو به.

وأصدر قانونه الخاص: لكي تنجو من الجلد بالسوط عليها أن تسوطه هو، كان إحساسها بالمهانة والمذَّلة هو الدافع الذي منعها من اللجوء لأسرتها مرة أخرى فالأب رحل صبيحة ليلة فاجأ ابنته فيها وهي تداوي جراح السوط وخرج من عندها ليرقد رقدته الأخيرة. بقيت بعده الأم والشقيقات

اللاتي تزوجن وافترقن كل في اتجاه، أما الأم فكانت تنتقل بينهن بشكل دوري إلا نهير، فقد أقسمت ألا تدخل بيتها طالما كانت تحت حكم العسكري.

إذاً فلم يكن حولها أو بالقرب منها من يساندها أو يحميها، كانت تترنح كزهرة تعصف بها الرياح وتذبل بالتدريج، وبات راسخاً في أعماقها أنها تعدو سريعاً لأحضان الموت لدرجة أنها لم تصدق بارقة الأمل التي لاحت في نهاية السرداب الطويل الذي انغلقت عليها كل أبوابه.. كان الصبر قد عودها على الاستسلام للمقدور الذي فرض عليها.. شركاً لا فكاك منه خادمه اليأس واللاجدوى، ولم يكن هناك شيء تنتظره أو أمل تترجاه. أما بارقة الأمل التي لاحت.. فقد جاءت على يديه هو.. طارق العسكري.

فاجأتها الصرخات قبيل الفجر ربما كان حلماً.. كلا.. فقد نهضت من فراشها ولملمت روبها حول جسدها وهرعت إلى مصدر الصوت وظنت أنه آت من جهة المطبخ وقبل أن تصل كانت الصرخات قد صمتت أو تحولت إلى أنين صادر عن ألمٍ مبرح.

في باب المطبخ كان يقف نصف عار وبيده الكرباج والعرق يتفصد من جميع مسامه وينسال على وجهه.. تنبض قطراته مع دقات قلب لاهثة، وعلى مقربة من قدميه ترقد امرأة عارية انقطع أنينها وليس فيها ما يدل على وجودها غير الدماء النازفة من جراحها...!!

تسمَّرت نهير مصعوقة وقد غطَّت فمها بكفها لتكتم صرخة مدوية انحشرت في حلقها. أحست بأنفاسه وهو يقترب منها ونفذت إلى أنفها رائحة الدم والعرق ممتزجة برائحة أخرى منتة كأنها منبعثة من جيفة، حاولت أن تبتعد لكنه سارع وحاصرها في الركن الواصل بين المطبخ وحجرة الطعام، كان للجو ملمس لزج، وللجدران كثافة رجراجة وعلى الأرض قطرات دماء ما زالت حارة.

- أنت لم تري شيئاً أتفهمين. (أومأت برأسها راضخة).

وستنسين الليلة كلها.. ستكملين نومك وفي الصباح لن تجدي أثراً، كأنك رأيت حلماً تبدد مع طلوع الصبح.. أدخلي الحجرة وأغلقي بابها عليك ونامي.

وقد فعلت! دفنت رأسها في الوسادة وأغلقت عينيها بقوة آلمتها ورأت في الظلمة أشكالاً سيريالية شوهاء لم تلبث أن تفرقت لتكشف عن البارقة الموعودة لأول مرة منذ عشر سنوات تحلم بسراية الباشا والبيانو القديم في الصالة الرئيسية وشجرة الجوافة في الحديقة.. والليلة لم يعد الحلم خالياً كانت تجلس تحت الشجرة على المقعد الخشبي ممسكة بكتاب وجاء الأب يربت على كتفها:

- أي كتاب هذا الذي سرقك مني؟

أجابته إجابة مدغمة لا تذكرها ثم بكت فاحتضنها الأب.

- كفاك بكاء فالبشارة تلوح في الأفق .. القاتل لا بد أن

يلقى جزاءه وقريباً تتحررين..

وفي الصباح لم يكن هناك أثر لشيء لا جثة ولا دماء وحتى الكرباج اختفى. أعدت له الإفطار والتهمه بشهية وتجشأ بصوت منكر وفوجئت بنفسها تسأله في هدوء أذهلها قبل أن يثيره هو.. أين هي؟

ـ من تقصدين؟ (كان وجهه قد تقلص ممتقعاً.. وسرى أحمرار في الشعيرات الدموية بعينه).

ـ جثة الأمس! لا بد أنك نقلتها وبالطبع تخلصت منها في مكان ما... ولكن أين؟ أسأل من باب الفضول فقط.

تدلَّى فكه الأسفل وانقلبت شفتاه ولكنه استجمع نفسه سريعاً ووضع قناع الغضب الشرس..

ـ لعلك استغنيت عن روحك ولا بد أن تعاقبي!!

ـ إذا فأين الكرباح؟

ـ تظنين أنه أداة العقاب الوحيدة؟؟ كم أنت مخطئة وسأريك خطأك حالاً.

نهض عن مقعده وتوجه نحوها منتفخ العينين والأوداج وقد أعد قبضة يده ليضرب ولكنها تعلقت في الفراغ لم يستطيع أن يكمل ضربته فقد فوجىء بالسكين في يد نهير يكاد نصلها يلامس بطنه.

ـ أنت مجنونة!!

ـ نعم.. وسأكمل رحلة جنوني وستظل السكين بيدي حتى أقرب قسم للشرطة لأحكي لهم ما حدث.

بدأ الدكتور طارق العسكري كما لو كان قد رأى شبحاً لم يخطر له أبداً أن تتحول نهير الرقيقة الحساسة المغلوبة على أمرها إلى امرأة ممسكة بسكين وتمتلك شجاعة لتدخل قسم الشرطة، وتبلغ عن جريمته!!

وأحس أنه مجرد من سلاحه تماماً.. ابيضّ وجهه.. وازدرد لعابه يسألها بصوت محشرج:

ـ ماذا تريدين لتنسي هذا الحادث إلى الأبد؟

ـ حريتي.. أريد الطلاق!!

# (5)

# سؤال

متى حدث ما حدث؟

غالباً حين كنت في أسوان، أذكر أن تعييني هناك كان نوعاً من العقاب (ما زالت المسافات بين الأمكنة تعد عملة للمكافأة والجزاء في نظر الكثيرين من البيروقراطيين المتربعين في مملكة التسلط الإداري).. وأظن أن العقاب كان بعضاً من عملية «نزع ريش الطاووس»..

عدت من بعثتي الدراسية التي أمضيت سنواتها في بلاد الشمال وتفوقت هناك لدرجة أنهم عرضوا علي البقاء والتجنُّس ليصنعوا مني عالماً يدق أبواب «نوبل» بعد سنوات قلائل، ولكني مشبعاً بالقيم القديمة رفضت، فلا بد لي من الرجوع إلى وطني وخدمة بنيه بما حصلته من معارف..! وعدت لتبدأ رحلة ندمي.. وتزدوج خيبتي..

ويقول الشيخ عادل معلقاً وهو يضحك ضحكته المدوية..

«خيبتان في الرأس توجع».. للبني آدم خيبة.. ولك خيبتان لذا فقد صدق قولك حين ظللت تردد أنك لست «شخصاً عادياً»! فهل أكون مذنباً لمجرد أنني عرفت قدر نفسي ووضعت هذا القدر موضعه على خريطة المستقبل المنشود؟.. وهل أخطأت حين تزوجت تلك الفتاة الرائعة «بنت الناس» التي كان فتية من أبناء الشريحة العليا يلهثون خلفها ويتصارعون عليها؟.. وماذا لو فزت أنا؟.. وهو ما حدث.. فأهلها رجحوا كفة الفتى صاحب الدكتوراه والمستقبل الذهبي الموعود.. (لم أكتشف أنها هي شخصياً لا تؤيد هذا الترجيح وصارحتني فيما بعد أنها ندمت أشد الندم.. في الزواج حسبة مادية ترجح كل الحسابات الأخرى)، أما أنا فلأنني أردت أن أنال ما هو حقي اتجهت إلى الجامعة.. الطريق الطبيعي لمن كان مثلي..

وهناك قابلني رئيس الجامعة مرحباً وأبدى رضاه عما قدمته له من شهادات ووثائق تثبت حقيقة العروض التي انهالت عليّ من الجامعات في هولندا والدنمارك والسويد.. وأطرى وطنيتي وإيثاري خدمة بلدي وأهلي.. «سنجد لك المكان اللائق بك.. فقط أترك لنا طلبك وأوراقك كلها. ولن تنتظر طويلاً».. وانتهى الأمر بتعييني نائباً لرئيس معهد أبحاث المياه التابع لجامعة الجنوب على درجة أستاذ مساعد!..

وعبثاً صرخت وهللت وحاولت إقناعهم بأني نلت درجة الدكتوراه عن أبحاثي في الكيمياء العضوية.. وأصروا هم في بلادة مثيرة على أن أبحاث المياه تدخل في صميم تخصُّصي..

وكان لا بد أن أخضع لمنطقهم فسافرت!..

آه لهذه المدينة الساحرة التي احتضنت خيبة الأمل الذي كان يشق أجواز الفضاء ثم سقط وارتطم بجرانيت شاطىء النيل هناك..

بالتدريج كانت أخشاب المركب الشراعي الجميل الذي كنت أراه سابحاً في النيل وخلفه غابات النخيل في الصورة السياحية على جدار مقصورة الدرجة الثانية في قطار الصعيد.. هذه الأخشاب التي ارتطمت بالجرانيت وطافت حطاماً لتستقر بين أعشاب البردي على الشاطىء قرب الخزان أمام مسكني الصغير الذي اعتبروه «ڤيلا».. في أسوان..

استطاعت الأخشاب الطافية على سطح ساكن أن تواطن أحلامي وتشاركها المهجع.. وتحيلني إلى خيبتي الأخرى التي أساكنها! أصبحت بنت الناس.. تلك الجوهرة التي التقطتها واصطفيتها لنفسي دون الآخرين في حالة نفسية تقترب حثيثاً من الانهيار العصبي الكامل.

ـ هذه المدينة ستصيبني بالجنون!.. وحدة.. وملل.. ومشهد ثابت يطل من النافذة... وكأنه كارت بوستال ملصق على الحائط.. أصنع بي معروفاً ودعني أسافر لبيت أهلي في القاهرة..

ـ ولكن.. الولد والبنت.. والمدارس و..

ـ آخذهما معي... أو أتركهما معك.. كما تريد..

ـ يمكنك أن تسافري في إجازة أسبوعاً أو اثنين أو حتى شهراً.. ولكني لا أطيق البقاء وحدي أكثر من ذلك!

تصرخ وكأنها تنفجر: «هذا استعباد.. وأنا لست عبدتك»..

حاولت والتمست الواسطة بكل الطرق حتى أنقل من أسوان.. وتلقيت عشرات الوعود إن شاء الله في أول نشرة قادمة.. ولكن هذه النشرة الموعودة لم تأت وحالة المسكينة تزداد سوءاً..

السيدة توشك على الدخول في محنة اكتئاب سوداوي خطر فأطلقها! قال لي أستاذ الأمراض النفسية في الجامعة..

«وكيف أطلقها يا صديقي؟».. هز كتفيه مبدياً رفضه لأن يقترح عليَّ نهجاً معيناً «زوجتك وأنت تعرف ما تريد».

ـ خبريني! هل تريدين العودة لبيت الأهل حتى لو لم أصحبك؟

نظرت إليَّ طويلاً.. وبعد فترة صمت ودون أن تختلج في وجهها عضلة.. أو يظهر أي تعبير في عينيها:

ـ الأفضل أن تبقى هنا.. سآخذ الطفلين وأرحل.. هذا ما أريده..!!

بدا لي في لحظة أننا لسنا شخصين حقيقيين.. وإنما مجرد رجل وامرأة التقيا في قصة لأنطون تشيكوف وعاشا في سطور القصة زمناً يتشاطران الفراش وينجبان الأطفال

دون أن يعرف أحدهما الآخر، ثم أفاقا ذات صباح.. ليصرخ كل منهما في صوت واحد: لا أريدك..! ثم أتى اليوم الموعود..

طبعي أني لا أفقد الأمل أبداً.. وحين يصفق باب في وجهي أفكر في أنه لن يلبث أن ينفتح بقوة الارتداد، لذا لم أترك زوجتي المريضة تعود إلى أهلها مع الطفلين وحيدة.. ورأيت أن واجبي يحتم علي أن أصحبها وأوصلها إلى الجماعة حتى أرجع إلى أسوان مطمئناً..

وتحايلت لأمنعها من الحجز على الطائرة..

وكذبت لأجبرها على الموافقة على السفر بقطار النوم.. (كنت أتمنى لو ساعدتها الرحلة الطويلة على إعادة النظر والتخلي عن فكرة البقاء نهائياً في القاهرة...).. لكنها لم تبد غير المزيد من الملل والعصبية... وتشاجرنا عدة مرات طوال رحلة القطار وهي لا تفتأ تتهمني بأني تعمدت تسفيرها بالقطار لأمعن في تعذيبها وتحطيم أعصابها... ثم تحتضن «مازناً» و«أروى» بأقصى قوة لديها وتبكي.

ـ أرجوك.. لا تأخذهما مني.. لو فعلت فسأموت.

ـ لم يدر بخدلي لحظة واحدة أنني سأنزع طفليها من حضنها.. لكني فطنت إلى أنها تتحدَّث على خلفية التفكير في الانفصال، ولدهشتي الشديدة لم أشعر بأي نوع من المفاجأة وكأني كنت أتواقع..

والواقع أن الأمر لم يتطلب وقتاً كثيراً.. فقد واجهني

الأب والأخ الأكبر بطلب الطلاق.. أمهلتهم أياماً قلائل لأن هناك بصيصاً من أمل قد يغير الأمور ويحل المشاكل..

كان خبر قرب صدور النشرة قد تسرَّب ويمكنني وأنا في القاهرة أن أتابع وأتأكد..

لم تختلط عليَّ الأفكار والمشاعر طوال سنوات عمري الماضية قدر ما فعلت حين تسلمت بيدي خطاب النقل إلى جامعة «حلوان». وطوال الطريق كنت أسأل نفسي ها هي المعضلة قد حُلَّت.. ولم يعد لديها حجة تتذرع بها.. فهل تريدها أنت؟. لماذا لا تخفي الخطاب وتتم الطلاق؟.. وإذا كنت قد تلكأت بسبب «مازن» و«أروى» فأنت ستتركهما لها في كل الأحوال.. الحقيقة أنني سألت نفسي كل الأسئلة الخاطئة.

السؤال الصحيح كان: هل هي تريدك؟

وهل كان الجواب بالإيجاب؟.. كلا.. الغريبان بعد حياة مشتركة لم يعرف أحدهما فيها الآخر.. رحلا..

ـ هل عرفت الآن حكايتي يا نهير؟

## (6)

## حضن الفراغ

كم تكبدت من آلام مبرحة وأنا أمارس عملية تغيير الجلد! عملية لم أجد منها بداً.. فلم أتصور للحظة أن تظل حياتي على المنوال القديم.. وكان لا بد لي من إعادة نظمها وترتيبها (أليس التغيير هو سنة الحياة؟) وحين اكتشفت أن التغيير الكامل بعضُ من المحال.. أدركت أنه لا مفر من الاختيار... وعليَّ أن ألتقط أهم ثوابت الماضي وأطبق يدي عليها.. ولم يكن في ذلك الماضي أهم من مازن وأروى.. فحدث أول صدام ولم تكتف مطلقتي المسكينة بحضانة الطفلين بل رفضت أن تعطيني حرية رؤيتهما في أي وقت وتمسكت بأن تحدد هي مواعيد الزيارة.

وحين التمست من أبيها أن يقنعها بالسماح للطفلين بقضاء يوم كامل معي ولو مرة كل شهر عاد لينصحني بأن أنسى الأمر تماماً!، كيف؟.. تعلم يا سيدي أني قادر على استصدار أمر من القضاء بإجبارها على تنفيذ حقوق زيارة الأب!

ـ تستطيع طبعاً ولكني أضرع إليك ألا تفعل! فمرضها العصبي سيؤدي بها إلى الجنون إذا فعلت فتحمل من أجل مازن وأروى..؟ دعهما لها تماماً وأعدك بأن ألين من عصبيتها وأقنعها بأن الطفلين في حاجة ماسة لوجود الأب قريباً!..

كان التخلي عن الولد والبنت أصعب خطوة في مشوار الانسلاخ واستبدال الجلد..

ـ لا أحد يستطيع أن يغير جلده في الحقيقة.. يمكنك فقط أن تنسى!..

قالها الشيخ عادل وهو يلعب على أوتار عوده القديم.. مصدراً تلك النغمات العشوائية التي تشير إلى أنه يمكن أن يكون لو أراد عوّاداً محترفاً له شأنه.. ومع خفقات الوتر كان هو يدندن بصوت خفيض بعد أن ضبط عزفه العشوائي: ستاير النسيان.. نزلت بقى لها زمان!

ـ لم تُعَدْ يا شيخ عادل.. لم تعد هناك من تستطيع أن تقنعك بالنسيان والتي كانت تدفعك للتغلب على جمر النار وتشردك مع الأفكار..

ـ اسمع كلامي يا ابن خالي وضعه كحلقة في أذنك.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. ولا يداوي الداء إلا الداء نفسه.

ـ لا أفهم مقصدك يا مولانا!

ـ دعنا من كلمة أبي الحسن بن هانيء ولنقربها من

الزمن الحاضر.. حيث قال محمد فوزي، وهو يصرخ فينا: داوي الهوى بالهوى!.

- أنت تمزح وأنا لا أحب الهازلين! أي هوى تتحدَّث عنه؟ أين أجده؟ هل أنشر طلباً في الإعلانات المبوبة؟ مطلوب حب حقيقي يستطيع أن يمحو مرارة ما قبله؟

- من منا يهزل الآن؟.. ألست أستاذاً مساعداً في كلية تمتلىء بالسيدات والآنسات من ذوات الدلال والجمال وعرائس الخيال؟

- لا تواصل الهزر في موطن الجد وواصل قصتك الخاصة مع فراشة سراية الباشا..

لم آخذ كلام ابن عمتي العتيد مأخذ الجد.. واعتبرته ضرباً من لغو السمر.. لكني اكتشفت بعد أيام قليلة أنه ألقى بداخلي جرثومة ما فتئت تفرض وجودها على عقلي الباطن.. فرحت أنظر حولي باحثاً عن التي يمكن أن تكون مرشحتي للحب الجديد.. لم يكن هذا عن تعمُّد بل كان من تأثير جرثومة الشيخ عادل. وضايقني أن أنشغل وأضبط نفسي منشغلاً بمثل هذه اللعبة السخيفة.. وانتابني غيظ حانق حينما شعرت بعجزي عن الإقلاع خاصة حين تعرضت لذلك الحرج البالغ إذا فاجأتني د. نبيلة المدرس المساعد في اجتماع القسم وأنا أحملق فيها شارداً فإذا بها تهتف ساخرة: هل تعجبك تصفيفة شعري أم ألوان «ماكياجي»؟.. وانسحبت من الاجتماع و«عرقي

مرقي».. كما يقولون.. وضاعف ذلك من ارتباكي واضطراب تعاملي مع الزميلات في هيئة التدريس والطالبات في المدرجات!!

و.. حل يوم الخريجين.. وفي زحام الحفل أشرقت أو أيقنت! أنها هي بعينها.. رغم أن ملامحها في القرب اختلفت عن المنظور الذي كنت أطل منه عليها في جلستها الأثيرة على المقعد تحت شجرة الجوافة!.. نعم.. عرفت لأول مرة أن نهيراً كانت من خريجات الكلية..

وكانت أول مرة أجد نفسي على هذا القدر من القرب بيننا.. وكان لا بد أن تشتبك نظراتنا في أي لحظة.. وحين حدث هذا ارتعد جسدي انفعالاً إذ لاحت على وجهها تلك الابتسامة اللطيفة حين التقت عينانا.. ووجدتني أتقدم منها بجرأة لم أعهدها في نفسي..

ـ جارك في بيت الجريتلي.. وأطللت عليك مراراً جالساً في شرفة حجرتي وأنت جالسة تحت شجرة الجوافة..

تورَّد خداها واتسعت ابتسامتها قليلاً.. وتهادى صوتها كأنه خرير ينبوع صيفي:

ـ لاحظتك! فرصة سعيدة عن إذنك..

وبلمح البصر غاب طيفها. وحاولت عبثاً أن أبحث عنها طوال الحفلة ولكنها كانت قد تبخرت.. اكتشفت لحظتها أنني لم أحب قبلاً لأنه لم يسبق لي أن مررت بهذه الحالة: ابتراد

الأطراف وسخونة الوجنتين، وذلك الألم الخفيف في المعدة.. ولفحة الجنون التي تريد إعادة الزمن الخاطف بعد أن ولَّى!.. كيف ولم أومن يوماً بمسألة الحب من أول نظرة؟.. أحقاً؟.. ومتابعتي لها سابقاً بالنظر ومراقبتي إياها في صالة الدور العلوي التي تواجه شرفتي مباشرة.. ومتابعتي لاقترابها الليلي من نافذة حجرة نومها لتحكم إسدال الستائر؟.. كان بحثي عنها يتقاطر في ساحة اللاشعور كل يوم، وأنا أتظاهر بتقصّي حقيقة ما يتردد عن توثق الصلة بينها وبين الشيخ عادل..

وتحت إلحاح عاطفة وليدة مشحونة بكل توترات الرغبة في التواصل لم أتورع عن اللجوء لعادل:

- أريد رقم المحمول الخاص بنهير!!

فوجىء.. واشرأب بعنقه مستعسراً وكأنه لم يسمع..

- تريد رقم من؟ هل ذكرت نهيراً؟

- أريد أن أتكلم معها يا سيدنا الشيخ!

- فيم تريد أن..

وبتَرَ جملته وران عليه صمت كامل.. لم يقطعه إلا صوته يزوم مغمغماً: كنت أعرف! ثم رفع صوته مكملاً: الرقم مدوَّن في المفكرة على المكتب أمامك!.. ولكني أنصحك.. الحارة سَدّ فلا تحاول وتسبب لنفسك الحرج..

لم يفتني ما عرى ابن عمتي من وجوم أشبه بالصدمة..

وقبل أن أضغط على أزرار المحمول سألته: هل تحبها يا مولانا؟

- وهل مثلي يجرؤ على حب مثلها؟..

ثم نهض وخرج لا يلوي على شيء.

## (7)

## ضربة حب

لم أصدق أن عادلاً قد تدلَّه في هواها لهذه الدرجة ولكن لم أستطع أبداً أن أنكر الحقيقة التي فاجأتني تلك الليلة.

دخلت عليَّ عمتي ممتقعة الوجه راجفة اللهجة: ماذا فعلت له يابني؟ ماذا حدث لتسألني هذا السؤال؟

خرجت معها لأشاهده قابعاً في الشرفة الخلفية يبكي بلا صوت.. فقط يهتز جسده برعشة كرعشة الحمى وهمست لها: دعينا وحدنا يا عمتي. مسحت دموعها بطرف طرحتها وربتت على كتفي وكأنها ترجوني، وركعتُ لأجلس بجواره وأحيط كتفيه بذراعي وأهمس في أذنه: ماذا بك يا مولانا؟ أتحبها لهذه الدرجة؟

دفعني برفق لأبتعد عنه وخرج صوته من صدره أشبه بانتفاضة طير ذبيح: لا شأن لك بمن أحب ومن أكره ودعني وحدي بحق الدم والعيش والملح. ولبيت له طلبه، ولكني لم

أتركه. جلست عن كثب منه صامتاً لا أجد سبيلاً لأي تواصل، وبعد فترة لا أعرف مداها ربما كانت دقائق أو ساعات تخلَّص هو من الأزمة التي اجتاحته وتلفَّت رافعاً وجهه وكأنه يتنسَّم رائحة وجودي: ألم تبرح بعد؟ فيم بقاؤك وقد توسلت إليك أن تتركني؟ وهل يعطيك تميزك بالبصر الحق في الاعتداء على خصوصية الآخرين.

أحسست في صوته هذه المرة برغبة حقيقية في الانفراد بنفسه فنهضت منسحباً وأنا أهمس له: سأتركك الآن لتراجع مشاعرك وتتبين حقيقة موقفي، وصدقني يا ابن عمتي لو طلبت مني صباح الغد أن أترك هذا البيت وأرحل عن حلوان بأسرها فسأفعل على الفور!

لم أستطع النوم ليلتها بعد أن ظل السؤال يتأرجح في ذهني ولا يجد إجابة كلاشيه: لماذا تصادف أن يولع كلانا بنفس الفتاة؟! أتراني قد نفست عليه أن يحصل على نهير واستكثرت عليه وهو الأعمى أن يتمتع بجمال لا يراه. «الإنسان مخلوق شرير بطبعه ينزع دائماً إلى الاستيلاء على ما يملكه الآخرون»، والسؤال لا ينتهي بل يجر خلفه أسئلة أخرى، فقد قفزت من البداية إلى نهايات متشابكة كحلقات في نفس السلسلة!

لم تكن الأسئلة التي تداعت بعضها من بعض قادرة على استدعاء الأجوبة الصحيحة فكانت الحيرة هي الحصاد، ما الذي دفعني إلى الانغماس في تجربة كهذه في الوقت الذي

خرجت من أخرى أثخنتني بالجراح.. أتراني أدمنت آلام الفشل أم أنني استعذبت مشاعر الخذلان؟

بعد إغفاءة الفجر القصيرة استيقظت وأنا أحاول في عقلي الباطن أن أجد جواباً شافياً، بحثت عن عادل فلم أجده وقالت لي عمتي بصوت يحمل قدراً من العتب: صحونا جميعاً فلم نجده ربما بقي في المسجد بعد صلاة الفجر فهو يفعلها كثيراً وقد تأخذه سنة من النوم فيظل قابعاً في ركنه المفضل بجوار المحراب، ثم أشاحت بوجهها الذي تبدّت عليه دمعة هاربة، خرجت مصرّاً على أن ألقاه. وقبل أن أصل إلى المسجد التفت بدافع قهري إلى حديقة السراية فتجمدت في مكاني ذاهلاً.. كان عادل جالساً مع نهير وأمها وبعض الأطفال من أبناء الجيران، كان الشيخ عادل يعزف على عوده ويغني إحدى أغاني الأطفال الشائعة والآخرون يرددونها معه.

وقفت أراقب المشهد وقد تضعضعت حواسي واشتعلت بداخلي تلك النار اللافحة تنشب ألسنتها في صدري الذي كنت قد غسلته من انفعالات وإحباطات التجربة التعسة التي سحقت بدايات الشباب وأسفرت عن رغبة لا شعورية في التعويض والانتقام للذات، وإلا فما هي مشاعر الغيرة الجامحة التي فاضت في صدري لحظة أن رأيت الشيخ عادل يغني في حديقة نهير؟

للحظات كرهت ابن عمتي ونقمت عليه وانتابني ذلك الإحساس الشيطاني يدفعني لأن أفسد عليه متعته فدخلت بلا

دعوة واقتحمت عليهم جلستهم الصباحية المرحة:

- آسف يا جماعة على دخولي بدون إحم ولا دستور، فالسيدة عمتي طلبت مني أن أستدعي لها الشيخ عادل أينما كان.

أنقذتني بشاشتهم وترحيبهم الحار بدخولي عليهم من مشاعر الخجل والارتباك التي اعترتني، وبينما كنت أردد عبارات الاعتذار مرة أخرى، فوجئت باليد الرخصة الرقيقة تلمس أصابعي:

- تفضل سنفطر معاً. وإذا بصوت الشيخ عادل ينبعث حادّاً ساخطاً: لا وحياتك.. قديمة!

أصاب الذهول الجميع هناك وأحس عادل بردود أفعالهم من خلال صمتهم المطبق ويبدو أن الأمر أربكه فانتفض من جلسته ونهض مستعداً للرحيل وهو يهدر حانقاً: سايبهالك مخضرة وأرجو ألا تتبعني مرة أخرى وإلا تركت لك البيت والحي والمدينة بأسرها.

ترى ألم نكن سوى طفلين يتشاجران على لعبة؟ أو على الأقل كان هذا انطباع أهل السراية عن كل منا؟

كنت أعاني من مشاعر الخجل التي منعتني من الجلوس أو الانصراف أو الكلام في وجود الأطفال والنظرات المندهشة في عيون الأم والبنت تذكرت أنني قد جاوزت العقد الرابع وها أنذا أقف كالمهرِّج السخيف الذي يتضرَّع في أعماقه

للأرض كي تنشق وتبتلعه.

المفروض أنني أستاذ مساعد في الجامعة وأن أكون بالتالي رجلاً له «بريستيج» فكيف يعرِّض نفسه للسخرية أتراه الحب؟ وأي حب هذا الذي تشتعل فيه غيرة المراهقين وتدفع صاحبه لكي يتصرف كالصبية.

المشكلة كانت في ختام المشهد حين راح يغمغم بكلمات اعتذار متلعثمة وأعقبها بالجري هارباً لا يلوي على شيء.

## (8)

## وياتي الأب

رأيته آخر مرة حين خرج من المعتقل بعد ثمانية عشر شهراً من غيابه عن المنزل وكنت وقتها استعد لامتحان البكالوريوس! وأذكر أنها كانت مرة اعتقاله الأخيرة.. وحين دخل من باب الشقة انتابتني الدهشة وكأني لم أتوقع خروجه. فقد تكررت حلقة الغياب والحضور حتى أصبحت سلسلة تعودنا عليها فلم نستشعر معها فجاءة الغياب ولا فرحة الحضور، ومثلي كان شقيقي الأكبر الذي استغربت علامات الدهشة على وجهه.. لأنه كان حلقة الوصل الدائمة بين البيت وبين المعتقل حيث كان يقوم هو بالزيارة الدورية المعتادة التي لم تعد أمي تتحمل مشقتها. وكانت تربطه علاقة وثيقة بالأب الذي لم يخف أبداً إيثاره لبكريه «شهدي» دون الآخرين خاصة أن أول فرحته كان لصيقاً به منذ تشرب مبكراً بالمبادىء التي آمن بها الباشمهندس رياض المحلاوي الذي أقرأه المانيفستو Comumist manifesto ورأس المال.. في سن مبكرة لم تخط بعد بالفتى إلى مدارج الشباب.. وجعله يحفظ

الأقوال الشهيرة لأئمة الفكر الماركسي ويردها إليَّ محاولاً اجتذابي معه وإن وقفت أمي بالمرصاد للمحاولة. فكان الرفيق رياض يرنو إليَّ كثيراً بنظرة متكررة يلمع فيها بارق من الأسف والاحتقار مردداً بصوت هامس وحدها أمي التي سمعته معي:.. ابن أمك! فكانت ترد له الصاع مازحة فتضمّني وتقبِّل وجنتيَّ معلقة: طبعاً أمال حايبقي ابن مين؟ ليتك تتركه في حاله وكفى ما فعلته بشهدي!.. جُنِّدَ شهدي في أواخر الستينيات وقاتل في اكتوبر..! رقص الجميع واحتفلوا وتبادلوا الأحضان والتهاني وأصبح السادات بطلاً! وبدورها حصلت أسرتنا الصغيرة على بطلها حين استشهد الابن الأكبر وعُلِّقت في الصالون صورة شهدي مزدانة بشريط أسود حول زاوية الإطار بجانبها إطار آخر يحوي نوط الواجب العسكري أو اسم تكريم مشابه وشهادة ممهورة بتوقيع رئيس الجمهورية..

تلقى الرفيق رياض المحلاوي الخبر ذات مساء.. كان صوت «حليم»، يترنح على إيقاع عسكري صارم: خللي السلاح صاحي.. صاحي.. لو نامت الدنيا صحيت مع سلاحي. لم أفهم أبداً رد فعل كل من أبي وأمي.. تلقت هي الضربة فأصدرت صوتاً هجيناً بين الزغرودة والصرخة ثم وضعت كفها على فمها وانسحبت إلى حجرة شهدي وأغلقت الباب.. أما الأب.. فقد ترنح لهنيهة وكأن أحداً قد دفعه ليسقطه ولكنه تمالك نفسه في آخر لحظة، وظل كما كان دائماً فاره الطول منتصباً كرمح إفريقي.. ألقى بنظرة قاتمة علي وعلى أختيَّ الصغيرتين.. وكانتا تعولان في حرقة ثم استدار ببطء ودخل صومعته.. تلك

الحجرة الصغيرة التي وضع فيها مع مكتب صغير مكتبة حائط تعلو الأريكة الاستوديو التي ينام عليها منذ سنوات.. بعد أن ترك للحاجة أم شهدي حجرة النوم الرئيسية تضمها مع البنتين.. بينما احتللنا أنا والشهيد الحجرة الثانية والأخيرة!

بعدها لم يعد رياض المحلاوي هو نفسه الرجل القديم الذي لم يترك فراغاً حوله في أي مكان عاش فيه.. سواء في البيت أو في المعتقل أو في مقر الحزب حيث يجتمع الرفاق في الزيتون!.. كذلك لم تعد الأم هي نفسها الست أم شهدي وإن وجدت لنفسها شخصية جديدة تتقمصها.. حيث نوديت بأم الشهيد!.. كانت أشياء كثيرة تتغير..

انتقلنا إلى الشقة القديمة في بيت حلوان بعد انتصارنا في نزاع قضائي قديم بين أبي وورثة مستأجر لا يستحقون البقاء وفقاً للقانون! وكان فألاً حسناً.. فقد تقدم شابان ليطلبا الزواج من الأختين التوأم انتصار وبشرى ورحلت كل منهما مع عريس فلم يعد هناك معنى لإحساسنا بالسعادة بالانتقال من مسكن الحلمية الضيق ذي الثلاث حجرات إلى مسكن حلوان الفسيح.. ولم يلبث الأب حين علم باحتمال سفري وزواجي أن سارع باستقدام عمتي أم عادل وأولادها لمشاطرته الشقة الكبيرة، وقال للست أم شهدي حين أبدت امتعاضها:

ـ إنما خشيت عليك من وطأة الوحدة.. فقد تزوجت البنتان وذهبت كل واحدة منهما إلى ركن من أركان الدنيا..

والباشمهندس شوقي لن يبقى معنا طويلاً.. وربما رحلت أنا أيضاً.. ولست أظن أنني سأبقى أكثر من ذلك خارج فندق من فنادقنا إياها.. فلا بد من القناطر أو المزرعة أو الملحق! لن يتبعنا الرجل بعد أن «زودناها» وتقّلنا العيار.. وهو في «زنقة» ردود أفعال كامب ديفيد.

- بالمناسبة يا والدي العزيز هاتفت سامح الدهشوري ابن ابن خالك.. هو يعمل بمباحث أمن الدولة كما تعلم وذهبت للقائه.. وطلب مني أن أنقل إليك تحذيراً..

- أي تحذير ياسي شوقي؟.. حقاً.. الصقر يستخدم يمامة!..

- لا يهمني ما تصفني به! المهم أن تعرف أنك رأس ليسته في اللمَّة القادمة!

- أعرف قبل أن يعرف سيادته أن هناك لمَّة في الطريق.. فبلغه امتناني!.

- إنما أشفقَ عليك.. فما أظن سنك وجسمك بالعلل التي ركبته يتحمل مضيفة «الفنادق!»

- وفِّر مشاعرك الرقيقة لمن يحتاجها يابن أمك وأخبرني.. هل نجح سامح الدهشوري في تجنيدك؟!

لم أشعر بنصل الإهانة يخترق صدري في يوم مثلما شعرت به يومها.. هل أبالغ إذا قلت إنني أحسست بمذاق الدم في فمي؟..

حدثني ذات مرة صديق من أصدقاء الثانوي تخصَّص بعد تخرجه في الطب النفسي.. فقال: أرى علاقتك بعم رياض نموذجاً للعلاقة الأوديبية التي تجعل الولد شديد الارتباط بالأم.. بينما تكون مشاعره تجاه الأب خاضعة لما نسميه بصراع العواطف.. حيث يحب الولد أباه بشدة ويغار منه بشدة في نفس الوقت...! يراه مثلاً أعلى يحرص على محاكاته.. ويضمر في عقله الباطن كرهاً له ورغبة دائماً في التمرد على سلطته الوالديه!

ولأني لم أكن أؤمن في أعماقي بالفرويدية.. فقد اعتبرت تحليل صديقي. عالم النفس الناشئ نوعاً من المراهقة العلمية أو السفسطة الأكاديمية! ورغم البرود الذي كان يغلب على العلاقة بيننا أنا والرفيق رياض المحلاوي إلا أنني كنت أحترمه في أعماقي.. ليس لأنه فقط أبي بل لأنه أولاً رجل يؤمن بمبدأ ويقبض على عقيدته ولو كانت جمراً..

تحوَّلت الجمرة بعد شهور إلى قطعة من جليد سيبيريا! حين انفرط العقد؟

ـ أتذكرين تلك الأيام يا فاتنة الجوار؟ ترى.. أين كنت؟..

ـ أرجوك.. أكمل قصة الأب.. وأي عقد ذاك الذي انفرط؟

ـ عقد الأحلام القديمة التي يعيش عليها المرء ردحاً من زمن تتحول سنواته إلى بناء من أحجار ثقال.. ثم يفاجأ عند نهايات العمر بأن الحجارة الثقيلة تذوب.. وتفصل وتنهار..

أرأيت إلى هؤلاء الماركسيين الأرثوذكس.. وهم يرون بأعينهم دولة الشيوعية الأم.. هناك خلف الستار الذي كان يوماً حديدياً.. تتساقط أحجارها لتذوب كألواح الثلج في نهر موسكو.

وترتطم بمياه نهر «نيفا» وأرصفة قصر الشتاء في «بطرس برج».. ما أبعد المسافة حقاً بين الأرميتاج.. ومقابر الإمام.. حيث تقودني أقدامي لأقرأ الفاتحة!!

## (9)

# زيارة منسية

أصرت نهير على مرافقتي إلى هناك! لم أكن أذهب إلا نادراً.. فقط في ذكرى رحيل الثلاثة.. الأب والأم والشقيق.. دهشت لدرجة عدم التصديق عندما أخبرتها بالتوافق العجيب بين تواريخ الرحيل: في شهر أكتوبر نفس الشهر في سنوات مختلفة.. وأصرت أن تزور معي المقبرة التي دفن فيها الثلاثة.

ـ لا أحمل للمكان ذكرى طيبة!

كانت أمي آخر من وُريَ الثرى.. ونزلت خلفها داخل المقبرة. ورأيت ما بقي من رفات شهدي.. والأب رياض المحلاوي ولم تبرح الصورة ذاكرتي خاصة حين أيقنت أن أمي التي أحببتها إلى درجة التقديس لن تلبث أن تصبح مثلهما.. مجرد رميم! بكيت كثيراً وكرهت المكان وأقسمت ألا أعود إليه إلا حين يحملني مشيعو جسدي الفاني..

.. لكن «نهيراً» استخدمت كل تأثيرها لتقنعني بالزيارة،

وقراءة الفاتحة والتصدق على أرواح الأعزاء الراحلين..

ـ حسناً.. سأذهب..

ـ وسآتي معك..

ـ مثل هذه الزيارة لا يشارك فيها غرباء لمجرد المجاملة!

ـ لا مجاملة في الأمر.. فأبي في نفس الجبانة.. وستصحبني في زيارتي له.. وسنقرأ الفاتحة معاً هنا وهناك.. كانت بدورها لا تزور أباها إلا لماماً..

ـ لا أحب الموت.. أكرهه وأخشاه وإن كان علينا حقاً!..

قمنا بالزيارة معاً.. وبكينا كالأطفال معاً.. وعدنا واجمين! لم ينطق أحدنا بكلمة طوال الطريق!.

هل يمكن أن تولد قصة حب في زيارة للمنسيين الذين رحلوا..؟ قفز السؤال في خاطري بينما كنت أحدق شارداً في أصيص يحوي صباراً مهملاً يعلوه التراب.. نظرت بركن عيني إلى نهير التي أسندت رأسها على الشاهد الرخامي الذي تحيطه حلقات من الزهور الجنائزية.. وانخرطت في نوبة بكاء صامت تهز جسدها وقد أقعى إلى جوار القبر فقي يرتل ما يفترض أنه قرآن، ولكن صوته المغمغم السريع وحركة رأسه التي تبدو كحركة بندول ساعة حائط..

كانت هناك مفارقة ساخرة في المشهد صاغها كلام

الفقي الضرير عن الأنوار التي تنبعث من قبر أهل نهير ليلاً، وأصوات التراتيل التي تتردد وكأن مصدرها السماء بذاتها!.. أشرت لنهير ساخراً من الرجل المنافق لكنها هزت كتفها وكأنه تقول «عادي!»..

عند بوابة منزلها وقفت تسألني: ألم يفرق معك اليوم؟

قلت: لقد أصابتني الكآبة.. ولكن لا بأس!

بابتسامة واهنة همست من خلالها: لدينا أعشاب أهدتنا بها إحدى قريباتنا بعد عودتها من رحلة لجنوب شرق آسيا واكتشفنا أنها مضادة للكآبة.. هل ترغب في التجربة؟

زغردت الدعوة في صدري بفرحة فاجأتني «بالتأكيد أرغب وأشكرك على الدعوة». لمعت عيناها ببريق مشاعر خجلى وصلتني من خلالها رسالة مؤداها أن.. أقدم.. فالضوء أخضر.

مذاق الشراب كان طيباً وغريباً.. أحسست ببرودة منعشة في صدري برغم أن قدح الشراب ساخن كالشاي تماماً. جلسنا في الحديقة على مقاعد «البرجولا» الواسعة.. وبينما كانت الأم تروي حكايات تعلق زوجها «المرحوم» بنهير وتدليله البالغ لها.. وإيثاره لها على شقيقاتها الأخريات كنت في شرودي أفكر في سؤال أنوي توجيهه لنهير فور انفرادي بها: «لماذا لم تدعوني للجلوس معها تحت شجرة الجوافة؟».

وقبل أن ألقي بسؤالي قاطعت هي مرويات الأم

وفاجأتني بالسؤال:

- لماذا لم نعد نرى الشيخ عادل؟..

ورغم أن السؤال كدرني إلى حد ما فقد أجبت..

- عادل في زيارة ممتدة لأبناء عمه في الإسكندرية.. ويبدو أن هناك مشروع خطبة في الأفق..

راقبت رد فعل نهير بدقة وفوجئت بأنها لم ترتبك بل عَلَتْ وجهها ابتسامة عريضة.. ثم هتفت:

- ماما.. الحقي.. الشيخ عادل قرر أخيراً أن يدخل القفص!

- والله خبر سعيد.. أنت لا تعرف يا دكتور قدر ابن عمتك عندنا.. أننا نعتبره فرداً في الأسرة ونأتنس بزياراته ونطرب لغنائه.. الله عليه وهو يغني أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم!

لا أدري سبب إحساس الارتياح والبهجة الذي غمرني! هل هو تأثير الشراب العشبي الذي جاء من الشرق؟ أم هو تأثير ردود الفعل التي أبدتها نهير وأمها حيال خبر احتمال زواج الشيخ عادل؟ حاولت قدر جهدي أن أقنع نفسي بالاحتمال الأول بعدما أشعرني الاحتمال الثاني بخجل عارم حين تذكرت توسلات عمتي ومناشدتها لي بأن أترفق وأراعي مشاعر ابنها المعاق. أدركت في نفس لحظة شعوري بالخجل

أنني أحب عادل حب الأشقاء، ولا يمكنني أن أقيم سعادتي على حطام أحلامه..

وحين انسحبت الهانم أم نهير اندفعت في نوبة اعترافات خرقاء: هل يمكنك أن تشعري بحب رجل لك وتتجاوبي معه رغم التجربة المريرة التي كادت أن تحطمك.. عفواً.. أنا لا أتحدث عن نفسي.. بصراحة أتحدث عن عادل.. ولا يمكنني تصور أنك لم تشعري بعواطفه المشبوبة نحوك.

ـ ماذا تقول: الشيخ عادل يحبني أنا؟

ـ أوليس من حقه أن يحب من هفا إليها قلبه؟ لماذا تستغربي حبه لك..! لأنه أعمى؟

صدمها تساؤلي الأخير فشحب وجهها، وتلوت قسمات وجهها في تعبير عن الاستنكار والإحساس بالإهانة.

ـ كيف توجه لي مثل هذا الكلام المهين.. وبأي مبرر تجرؤ على التدخل في رؤيتي لأي شخص في العالم.. آسفة جداً.. لن أستطيع مواصلة الحديث معك!

لم تنهض واكتفت بالاشاحة بوجهها بعيداً عني.. بينما ارتعد كل كياني في قشعريرة الحمى.. ونهضت بسرعة.. وقفت أمامها صامتاً للحظات.. تملكني إحساس بضرورة تغيير الموقف وعدم ترك الأمور على ما هي.. وبعد لأي انفكت عقدة لساني.

ـ صدقيني! لم أقل ما قلته إلا تحت تأثير الشعور بالذنب.. إذ كنت على وشك الاعتراف لك بمكنون صدري وتذكرت عادلاً وتعلقه بك. وهالني أن أجد نفسي وقد اختطفت حلمه. وهو بمثابة شقيقي وأحبه حباً جماً.

ببطء أدارت وجهها نحوي.. وهتفت بصوت مبحوح.

ـ من فضلك!.. ما هو مكنون صدرك الذي أشعرك بالذنب؟.. وهل أنا مجبرة على الارتباط بالشيخ عادل لمجرد أن أحميك من ضغط مشاعر الذنب؟

ـ هل يعني هذا أنك لا تحملين أي مشاعر تجاه عادل؟..

بحنق وإحساس مرّ بالإهانة.. هبت واقفة.. وبسحنة مكفهرة كغيوم شتاء قطبي.. ولهجة غاضبة:

ـ لا أحمل له ولا لأي رجل في الدنيا مشاعر من النوع الذي تقصده..

ـ حتى أنا؟

لم أدر حتى الآن كيف تفوّهت بها... ولا زالت صورتها وهي جامدة في مكانها وقد اتسعت حدقتاها.. ترمقني بمزيج من الارتباك والغضب.. بينما هتفت أنا مراهناً على المجهول:.. «أحبك».

## (10)

## لعبة الغياب

تتوافق إيقاعات الكلمة مع خطوات الانسحاب! وكان رد الفعل البارد طارداً.. باعثاً على الشعور بالخذلان، وساورني إحساس طفل باخت محاولته في الاتصال بالكبار، ثم تحول الخجل إلى غضب مخنوق! ثرت على نهير في أعماقي لغير ما سبب.. لا أزعم أنني فهمت يوماً أحوال حواء وتقلُّباتها، قررت أن أستغل عطلة الدراسة وأرحل إلى مكان بعيد.. حرصت على أن أعطي الأمل فرصة أخيرة. وحين تشجعت غروب اليوم الرابع.. وطرقت باب السراية.. خيل إلي أنها كانت تنتظرني في خلف الباب. كذبت خيالي وتبعتها إلى حجرة الاستقبال الفخمة التي لم أرها من قبل كانت ستائرها المخملية المسدلة والنجفة الهائلة المنقضة من السقف تكاد تلامس «الزهرية» النفيسة التي تتوسط مائدة الصالون الرابضة في قلب الحجرة على البساط العجمي الوثير.. ومعها تلك الرائحة الثقيلة الباردة.. كلها تشير إلى زمن غاب طويلاً وقد خلا من دفء الأنفاس، وبدا كأنه طَلَلٌ دارس ينتظر شاعراً يقف عليه باكياً (ألا عم

صباحاً أيها الطلل المطل).. في لوحة معلقة على الجدار الرئيسي رأى منظراً منسوخاً طالما رآه في اللوحات المعلقة على جدران الجاليري الشهير في وسط البلد..(ربما في قصر النيل أو طلعت حرب).. يمثل دغلاً كثيفاً يشكل خلفية لفتاة تقرأ كتاباً بجوار سور الشرفة الذي يميز معمار القرن الثامن عشر.. تنسم عطر زهور غير موجودة لكنها حاضرة في ذاكرته الحسية..

رسخ في ذهنه أن الحجرة هي منفى الضيوف الذين لا يتمتعون بحميمية الاقتراب من ساكني سراية الباشا.. أتراها تعمدت أن تبلغه رسالة فحواها أنه لم يعد من ضيوف الحديقة وشجرة الجوافة؟

كانت الأضواء المساعدة في الأركان هي المضاءة.. أما الثريا الضخمة فلم تنر.. طبعاً.. فليس هناك احتفال يستحقها.. بل ربما كانت المناسبة أقرب لمراسيم الوداع!.

... جلست قبالته.. فبدا وكأنها تعمدت أن تبقى على الشاطئ الآخر من النهر.. اعتدلت الصورة حين أفقت وانفصلت عن الآخر!.. عدت أنا.. إلى من أكون غالباً..

ـ أرجو ألا أكون قد تطفلت عليك وأزعجتك..

ـ لا شيء من هذا. فقط أدهشني انقطاعك!.

ـ غضبت من نفسي إذ ضايقتك يومها.. وآثرت أن أعاقبها بالغياب.. أعرف أنه ربما كان تصرفاً صبيانياً.. وهو

الأمر الذي أكرره كثيراً.. ويعدُّ من أهم عيوبي.. وها أنا أعترف.. وهذه ميزة قد توازن عيوبي!..

ضحكت مستملحاً ما أقول.. ولكنها لم تستجب لدعوة إذابة الجليد واكتفت بابتسامة باهتة..

ودخلت فتاة تعمل لديهم بصينية الشاي.. أحسست بالغبطة.. فأنا أعلم أنهم يقدمون القهوة تلقائياً للضيوف العابرين.. لكن.. ها هي تقدم ما تعرف أنني أحبه.. «شاي الهيمالايا بنكهة الياسمين».. الشاي الذي قدمته لي بنفسها في أول زيارة.. كانت تبتسم بفخر: شاي أحضره المرحوم «دادي» من زيارة قام بها خلال عمله في السفارة المصرية بنيودلهي.. نوع من الشاي لا يزرع إلا في ولاية «بوتان» عند سفح الهيمالايا..

.. كنت أشرد مسترجعاً ابتسامة عينيها.. لكن الابتسامة هربت.. وتحولت إلى تقطيبة جعدت جبينها.

ـ لم أعرف منك حتى الآن لماذا لا يزرع هذا الشاي إلا في بوتان!

فاجأها السؤال فأربكها (قالت لي مرة إنها لا تحب المفاجآت لأنها تربكها!!).

ـ لعلك لم تزرنا اليوم خصيصاً لأن موضوع شاي بوتان يقلقك..

بادرت وقد شعرت بأنها قد واربت الباب الموصد: ما يقلقني هو غضبك! لم أتصور أبداً إشارة لتعلق الشيخ عادل بك يمكن أن تسبِّب لك كل هذا الانزعاج.

- من فضلك! لا أريد العودة إلى هذا الحديث..

كانت لهجة آمرة لا تحتمل المراجعة أو المناقشة.. وداهمني إحساس بأنني أتصرف كطفل نزق يمارس لعبة ساذجة ومكشوفة لا يريد الكف عنها، وبينما كنت أفكر في البحث عن حديث آخر لا يغضبها.

أتاني سؤالها.. بلهجة بعيدة تماماً عن نبرة الغضب والملل التي أصرت عليها طوال ما مضى من بداية اللقاء.. كان صوتها هذه المرة. رخيماً.. ودوداً يتسع لابتسامة القرب والاعتياد: أتعرف أنني رافقت أبي ثلاث مرات لثلاثة بلاد.. مرة حين اختير قائماً بالأعمال في سفارتنا بالمغرب.. ومرة حين عُيِّن سفيراً في كوبنهاجن.. والثالثة في البرازيل.. كنت أتمنى مرافقته إلى الهند.. ولكن الزواج منعني!..

وفجأة بترت حديثها وتوقفت.. غرقت في صمت شارد، كأنها سبحت بعيداً عن ذكرياتها واحترمت صمتها ولم أحاول أن أقاطعه.. حتى فعلت هي..

- والآن.. ما سبب تشريفك لنا اليوم؟

.. احتسيت آخر رشفة من الشاي.. وأعدت القدح.. ولا أعرف سر ما انتابنى من هدوء ورصانة.

- في الحقيقة جئت لأودعك..

لم يفتني ذلك التورُّد الخاطف الذي عبر خديها.. والدهشة التي برقت في عينيها مختلطة بنظرة ترفض التصديق.. وأخيراً يأتي صوتها متلكئاً بحشرجة تبعدها سريعاً: هل أنت ذاهب إلى مكان؟.. أقصد هل نقلت إلى جامعة أخرى؟

- كلا.. المسألة ببساطة.. رحلة استشفاء!

بانزعاج تلقائي هتفت:

- ماذا بك؟..

وإذ بي أتمتم ببيت جميل بن معمر:

إذا قلت: ما بي يا بثينة قاتلي    من الوجد، قالت ثابت ويزيد

وفوجئت بها تهب غاضبة: لا أفهم أشعارك ولا أحبها.. هل تصارحني في بساطة بما ألمَّ بصحتك؟

نهضت منقاداً لما لا أعرفه ولا أستطيع مقاومته..

- أنت مرضي.. وأريد أن أشفى منك..

## (11)

## الخروج من الشرنقة

.. رنين الهاتف المحمول لم يفلح في إيقاظه إلا بعد حين! لم يكن نائماً ولكنه هجع مسترخياً في تلك المساحة الغائمة التي تتأرجح على هامش الوعي.. وجاءه صوتها أخيراً: «أحقاً ستسافر؟». تنبَّه للسؤال ولأهمية رده عليه، صمت برهة يسائل نفسه أولاً: هل تواصل اللعبة أم تكف عنها؟.. ولم ير إلا أن يلقي الكرة في ملعبها.

ـ وما رأيك أنت؟ تريدينني أن أسافر؟

ـ وما شأني بقرارتك؟ أريد فقط أن أعرف وجهة سفرك إن كنت جاداً..

ـ الحقيقة أن أمامي فرصة للاختيار بين بلدين.. تونس أو لبنان!..

ـ رأيي أن الإسكندرية أفضل.. فكِّر في الإسكندرية..

وضحكت ضحكة خفيفة أحس فيها بنبرة ساخرة..

وحين انتهت المكالمة كان جسده يرتعد تحت ضغط إحساسه بأنها قد اكتشفت بطريقة ما أبعاد لعبة الغياب وأنها لا شك تراه الآن في صورة الأخرق النزق.. وانتابه خجل أحنقه عليها وعلى نفسه واتخذ قراره بأن يسافر بالفعل!.

كانت الأمسية ثقيلة راكدة الهواء.. وذرات الغبار العالق بجو خماسيني حار تلسع أنفه وتحول عملية التنفس إلى ما يشبه الاختناق.. والشرفة «البحري» المطلة على سراية الباشا والتي كانت دائماً يغربل الهواء فيها ويحمل إلى الجالس فيها عطر الياسمين.. لا يتحرك هواؤها بنسمة شاردة.. بل يمتلىء بالهاموش وحشرات أخرى صغيرة تلدغ في لزوجة منفرة! يحس بأنفاس الشيخ عادل تلامس بدورها أديم أذنيه..

- أوحشتني برغم نذالتك!

التفت إليه ورآه يسحب الكرسي ويجلس.. إذن فقد أنهى الشيخ عادل غربته الاختيارية!

- أتظن فعلاً أنني نذل يابن عمتي؟

- أظن؟ أنا على يقين يا ابن خالي..

* * *

رأتهما خلف ستائر الصالة العلوية جالسين معاً.. وخالجها إحساس غير مبرر بالابتهاج.. كانت تعرف عن يقين مدى ارتباط كل منهما بالآخر.. لم يكن ارتباط ذوي القربى

بقدر ما كان ارتباط الصداقة الحميمة.. وكم أزعجها وجودها عند مفرق الطريق بينهما.. وحزنت فعلاً لإنقطاع الشيخ عادل عن سراية الباشا، خاصة أنها وقد علمت أنه انسحب من منافسة رآها غير متكافئة بينه وبين ابن خاله وصديقه الأقرب.. ومس قلبها إحساسه بالعجز.. ولكنها أدركت مثلما أدرك هو أن المنافسة قد حسمت لمصلحة أستاذ الجامعة!

من خلف كتفها جاءها صوت الأم: لا تعطي للآخر أملاً كاذباً يا ابنتي..

- «أنا لم أعط أيهما أي شيء.. ولا أريد!.. ربما أكون قد اخترت.. ولكني لن أعلن لأني لن أرتبط ولن أسلم قيادي للرجل مرة أخرى.. وأنت تعلمين الأسباب»..

نعم! كانت «الهانم» تعلم الأسباب ولكنها لم تكن تتصور في الوقت ذاته أن تظل نهير سجينة لتجربة تعسة تحكمها لآخر العمر!.. حدثتها عن حتمية النسيان ومداواة الداء بنفس الداء.. وضرورة البحث عن فرصة أخرى للسعادة! فأجابتها بأنها لن تطارد الفرصة. ولكنها لن ترفضها إذا لاحت متوافقة مع شروطها!

فهل كان «هو» تلك الفرصة؟ ربما.. ولكنها لا بد أن تتريث.. وتطابق الصورة على لائحة الشروط..

.. في صباح اليوم التالي كان عليه أن يلحق بموعد محاضرته الأولى في تمام التاسعة.. وركب سيارته واخترق

بها طرق حلوان حتى وصل لمشارف الجامعة، ليجد الطريق مغلقاً تسده جموع الطلاب وحولهم سياج من رجال الشرطة التابعين لتلك الناقلات ذات اللون الزيتوني سمع أنهم يسمونها عربات الترحيلات وقد رآها كثيراً تربض بجوار مباني الجامعة على أهبة الاستعداد! وكان كلما رآها يتذكر الأب والأخ الشهيد وينقبض صدره بإحساس مختلط من الرهبة والحزن والتشاؤم.

حاول أن يقاومهم هذه المرة بالتصميم على اختراق الحصار والوصول إلى مبنى الكلية.. أخبره واحد من الضباط المشرفين على الحصار بأنها مظاهرة شوية عيال لازم يتربوا.. وبعد لحظات رأى بعينيه نموذجاً عملياً للتربية التي تحدث عنها الضابط.. رأى طالبين محاصرين بين ثلة من رجال الأمن ينهالون عليهما ضرباً في نوع من السادية المفرطة.. وحين سقط أحد الطالبين أرضاً تعقبته الأحذية الثقيلة ركلاً في قسوة اقشعر لها بدنه فترك السيارة وأسرع إلى أطراف الدائرة الجهنمية.. وهتف مهيباً بأحد قواد الحملة الذي وقف يشاهد ما يحدث وعلى وجهه ابتسامة مقيتة: «ألا يمكنكم أن تؤدوا واجبكم الأمني بدون البطش وتجاوز الحدود؟». التفت له الرجل ذو النظارة السوداء والشارب الغليظ وهو يلوك اللبانة في فمه..

- ومن تكون بسلامتك؟

أخرج له الكارنيه وناوله إياه.. نظر فيه نظرة سريعة..

رماه على الأرض وأشار برأسه إلى مساعديه نحو د. شوقي..

وفي لحظات وجد نفسه بين أيدي اثنين من الجنود العمالقة تحمله إلى صندوق الترحيلات الزيتوني..

قذفاه على أرض العربة تحت أرجل كثيرة لمجموعة ممن سبقوه.. شباب تعرف فيهم على بعض تلامذته.. جروحهم تقطر دماً وشفاههم متورمة وعيونهم اختفت داخل الجفون المنتفخة..

ماذا يحدث؟.. سؤال أخرج من ذاكرته أصداء لمشهد قديم.. الأب يوم الإفراج عنه بعد شهور قضاها في ضيافة ليمان الواحات.. بعد أن سمع نقاشاً احتدم بين شهدي وشوقي.. كان «هو» يؤكد لشقيقه الأكبر أن اشتغال الأب بالسياسة مغامرة ستدفع الأسرة ثمنها.. وجاء صوته يتهدج زحفاً على جدران الذاكرة.. كان يقف في مدخل الحجرة وقد بدا أكثر طولاً..

- لن يضمن لك الخوف والاختباء الأمان الذي تظن..

وها هو يترنح على إيقاع سير الصندوق وقد انتابه خدر الحواس حين ترتطم بمفاجأة الصدمة.. ذهبت الصدمة وجاء النوم.. احتواه مغيباً كل مشاعر الخوف..

على الأرض الأسفلت.. كان دكتور شوقي.. أستاذ الهايدروليكا، يعاقر أضغاث حلم عبثي يجمعه مع أبيه ونهير والشيخ عادل.

## (12)

## الأزرق.. والأحمر!

تصبح على خير يا بسيوني!.. صباحك عسل يابو النصر..

فقط تحيات الصباح والمساء التي يسمعها وهو قابع في ركنه بالعنبر كانت تشير إلى الليل والنهار، إذ لم تنقض ساعات على دخول النفق إلا وقد اختلطت الأشياء وتمازجت الألوان، خاصة لونين بالتحديد.. الأزرق والأحمر.. وكانت المساحة الزرقاء تستغرق معظم اللوحة أحياناً ثم تتركها للزحف الأحمر.. بقعة تنسكب على الحائط أو على أسفلت العنبر لتفرش المشهد كله في ثانية.. أما لونا النهار والليل فلا وجود لهما.. توالت موجات الأزرق والأحمر مرات حتى دخل عليه بسيوني السجان واصطحبه إلى مكتب سلمه فيه لاثنين نقلاه في الصندوق المغلق..!

ساعتها لم يكن نهاراً، لم ير من كوة صندوق الترحيلات غير أرض سوداء وسماء زرقاء داكنة ترتعش بينها

مصابيح ليلية تمتد في عمق الشارع كرؤوس زرافات إفريقية عمياء.. لا بد أنه الفجر (طرحها قتراحاً).. لما لاحظه من خلو المنظر من الناس.. والزرقة الباهتة التي تتسلل في الأفق خلف البنايات الشاهقة..! متغلباً على آلام تمزق شدقيه. تشجّع وسأل الحارس الجالس بجواره شاكي السلاح: «النهاردة كام؟».. لم يسمع.. فأعاد شوقي السؤال بعد أن أزال حشرجة في حلقه بسعلة طاردة.. رمقه الحارس بفضول عابس. ولم يرد!.. فقط أخرج سيجارة من جيب سترته العلوي ووضعها له بين شفتيه وأشعلها... مج منها قد «نفسين» وسحبها منه. ليكملها هو.. شكره شوقي وهو يحس بنار تحرق شفتيه..

كان «نفس» السيجارة ملتهباً وكأن التبغ فيها معجون بمادة ملتهبة، وكانت شفتاه ما زالتا تحمل طبقة من الدم الجاف! (لماذا يتصرف الناس بكل هذا القدر من السادية، ثم يقدم لك الواحد منهم سيجارة إشفاقاً عليك؟.. ازدواجية طبعاً.. قديمة!! اكتشفت أنه ما زال قادراً على السخرية لكن السؤال لم يلبث أن التوي في حلقه بغصة خانقة فانفجر باكياً..).

ـ قل لهم ما يريدون وخلّص روحك!

ولم يدرك لأول وهلة أن الحارس هو الذي يتكلم.. وحين التفت إليه ورآه.. كانت هناك ابتسامة عريضة تملأ الوجه الممتعض الخشن! هل هي لحظة اقتراب إنساني مقدورة تحكمها الحقيقة المراوغة الحربائية التي صاحبت ميلاد بني البشر؟ هو شخصياً لا يملك إجابة.

وفي زمن خاطف نقل من سيارة الترحيلات إلى ممر مبلَّط طويل تضيئه مصابيح كهربائية مبهرة الضوء بعدها وجد نفسه في ممر أقصر وأضيق في آخره باب مغلق يسبقه باب مفتوح دفعوه من خلاله وأمروه بالانتظار.. وفجأة داهمه إحساس شرس بالجوع وفرح لهذا الإحساس باعتباره دليلاً على أنه لم يدخل النفق إلا منذ ساعات.. إذ لا يذكر أن هناك طعاماً قُدِّم إليه.. وطبعاً هم لا يمكن أن يتركوه يموت جوعاً.. هم؟ من هم؟ يبدو سؤالاً غبياً لكنه في الواقع يحمل مبرراته.. فشوقي مختلف تماماً. لا يشبه الأب رياض ولا الشقيق شهدي! من يومه وهو أبعد ما يكون عن السياسة.

ـ دكتور شوقي رياض؟.. تفضل معي إذا سمحت!

استيقظ على النداء.. ولكنه لم ير أحداً حوله (تراها هلاوس النوم؟).. ربما.. واسترخى مستدعياً نعاسه ثانية، ولكن صوت باب الحجرة المشترك يفتح وفي المدخل يقف الرجل يعيد الاستدعاء:

ـ تفضل يا دكتور شوقي!

الحجرة كانت مكتباً عادياً.. لا يوجد بها معلم واحد يشير لكون شاغلها واحداً من الكبار.. أو حتى موظف مهم.. جلس الرجل الطويل خلف المكتب الخشبي القديم، وأشار له ليجلس على كرسي وحيد وضع خصيصاً في مواجهة المكتب!.. تردد في الجلوس فهتف به في لهجة جافة آمرة:

اجلس! فجلس.. وشرع وجهه تجاهه يتأمله حتى ينتهي من ترتيب أوراقه! كان طويلاً.. زادته نحافته طولاً وأعطاه رأسه البيضاوي الأصلع والمنظار الطبي المنزلق حتى فتحتي الأنف مظهر العالم أو الطبيب.. ولم يكن بالتأكيد مصدر الانطباع، أو التكهن بمهنته، ضغط بأصبعه على زر جرس كهربائي.. وهو يهمس: أهلاً يا أستاذ شوقي! ولم يكمل الجملة حتى دخل رجل يحمل مسجل صوت وضعه على المكتب وأوصله بالكهرباء.. ثم أدى التحية العسكرية وانصرف.

- تفضل أن أناديك بلقبك العلمي.. دكتور شوقي رياض.. أستاذ مادة الهيدروليكا بكلية الهندسة.. صحِّح لي المعلومات أرجوك لو أخطأت.. العمر خمسة وأربعين عاماً.

صمت لحظة ليحس شوقي بنزوة تدفق لاقتحام الموقف: مطلق ولي ابن وابنة يقيمان مع أمهما.. وأنا أعيش في شقة بمنزل مملوك لأبي تشاركني في مسكني الشقة عمتي.. هي الآن وحيدة بعد أن زوَّجت بناتها ولم يتبقَّ إلا عادل ولدها الأوحد.. وهو أعمى ويجيد الغناء والتلحين كما هو شائع لدى فاقدي البصر..

تركه المحقق يتكلم.. فتدفق في الكلام وفقد تماماً سيطرته على ما يتكلم فيه..

- وهكذا ترى يا سيدي أن ممارسة هذا السلوك السادي تجري مع الجميع وأنا المثال أمامك.. أنا مجرد أستاذ جامعة

نظيف من مجاميعه.. لا علاقة لي بأي فصيل سياسي، ولم أنضم لأي حزب، ولا أحب المظاهرات، وأعتبرها سلوكاً غوغائياً، وليس لدي أي اهتمام بنشاط أي من جماعات المجتمع المدني، وأعتبر أن النظام السياسي الحاكم هو أفضل من حكم البلد طوال تاريخها.. تستطيع أن تعتبرني يا سيدي رجلاً متشرنقاً نسج الخيوط حول حياته بأكملها فلم يعد هناك خارج شرنقته ما يغريه بالخروج منها.. حتى الحب.. همه الوحيد في الحياة يمارسه دائماً داخل الشرنقة لا خارجها.. فكيف لمثلي أن يكون جانحاً أو معارضاً؟ ألم يكن من المنطقي والأكثر عدلاً.. أن يؤتى بي إلى هنا أمام سعادتكم قبل أن يمارسوا عليَّ ساديتهم الوحشية؟

اتسعت ابتسامة الرجل الطويل وهو يضغط على زر التسجيل..

- ألم تعرفني حتى الآن؟..

باغته السؤال؟ هل يفترض أن يعرفه؟ راح يحملق في وجهه بكل قدرة لديه على تدقيق النظر..

- تمنيت لو أنني سبق لي معرفة سيادتك.. ولكني للأسف..

- ذاكرتك إذن أضعف مما كنت أتصور..

- إذا لم يكن لدى سيادتك أية موانع فليتك تتفضل بإنعاش ذاكرتي..

ـ ألم تسمع المرحوم شهدي.. يذكر أمامك اسم جميل أبو قردان؟

هتف وهو يكاد يهب واقفاً: من؟ أبو قردان؟ صديقه المقرب الذي كان دائم الهروب من المعتقل؟.

بنفس الابتسامة هز الرجل رأسه موافقاً..

ـ ولكن كيف.. أنت هنا.. وكنت هناك.. لا أفهم!

ـ ربما كان من الأفضل ألا تفهم.. والآن دعنا في موضوعنا.

# (13)

## اللعب بالأوراق القديمة

ـ لا تراوغني يا دكتور.. فأنا أعرفكم جميعاً يا آل رياض! معرفة عشرة وعيش وملح! ربما لا تذكر لأنك كنت صغيراً وكنت بعيداً عن مدارات السياسة التي دار فيها أبوك وشقيقك الأكبر.. ولكني لبثت في داركم نحو ثلاثة أشهر مختبئاً من البوليس! ولاحظت أنك لم تشعر بوجودي بينكم ولم تقترب مني قدر خطوة واحدة.. كنت تحمي نفسك بإغماض العين دون ما تكره أن تراه، كأنك ولدت بحاسة خاصة تستشعر الخطر فتتكور حول ذاتك وتتشرنق مبتعداً عن الآخرين..

راح أبو قردان يشرح له نفسه فلم يلبث أن شعر بالملل وأرخى زمام أفكاره وفقد التركيز فشرد متخطياً بعينين إطار النافذة القريبة ليرى نهيراً تطل من خلف الزجاج.. (ترى هل تتساءلين أين ذهبت؟ أم تظنين أني سافرت حقاً؟) أحس بحنين جارف لقربها. وتنسُّم أريج عطرها.. لكن رائحة لفافة

الدخان ذات اللون البني الغامق الملتصقة بشفتي أبو قردان زكمت أنفه وأبعد نهيراً عن زجاج النافذة..

- لماذا لا ترد يا رفيق شوقي؟.. أين شردت حتى لا تسمعني؟

- ربما لأنك تروي ما أعرفه يا رفيق جميل..

أنا لست رفيقاً! خصوصاً بالنسبة إليك.. وسأكرر عليك السؤال.. هل سمعت عن قبلة يهوذا؟

ماذا يقصد هذا الرجل؟ يهوذا الإسخريوطي هو تلميذ المسيح الذي باعه بثلاثين قطعة من الفضة.. وكانت إشارة تسليم المخلص أن يقبله يهوذا فيعينه للكهنة وجنود بيلاطس البنطي!.. ماذا تريد بسؤالك؟..

- أريد أن أذكرك بأنك! قبلتنا نفس القبلة ولنفس الغرض! وشيت بنا جميعاً في ليلة واحدة..هل تذكرها يا يهوذا؟

- ومن كان يسوع الناصري فيكم؟

- أخوك شهدي بالطبع!

.. كان الحديث ثقيلاً.. تساقطت الكلمات فيه كالأحجار بداخله! هاجمته نوبة من الغثيان لم يستطع التغلب عليها فطاوعها وأغرق مكتب الرجل الذي ثار فبصق في وجهه وغادر المكتب! أعادوه إلى محبسه واستطاع في طريق العودة

أن يلمح مساحة من غروب المساء السبتمبري..

كان سبتمبر شهره المفضل برغم ما كان يثيره في صدره من غصة الأشجان وخفقات اللوعة.. وكم ألفى نفسه يبكي في ليالي سهرها وحيداً بلا سبب.. إلا إذا كانت وترية فيروز تهزج بجواره على المسجل «حبيبي بدو القمر.. والقمر عالي.. بدو عشر ليالي.. عشر ليالي سهر..». ثم يأتي هذا الأبو قردان ليتهمه بأنه واش حقير، ويحدثه عن يهوذا وقبلته الغادرة! وكيف لجبان خائن أن يعرف الحب؟.. (وكأن ما يمر به الآن يصلح للتفكير في الحب وسحر سبتمبر وأهازيج فيروز!!) أعادوه إلى العنبر. «واقترب منه «علي الغباري» وسأله عن التحقيق.

لم يسألني المحقق عن التهمة التي أخذوني بها.. ولكن وجَّه إليَّ اتهامات قديمة.

ثم سرد له تفاصيل ما حدث (حتى رحلة شروده مع نهير...) وكان قد تعرف بعلي الغباري في فناء الفسحة في السجن وعرف منه أنه فنان تشكيلي متخصص في نسخ اللوحات الشهيرة.

ـ سنخرج يوماً وأدعوك إلى مرسمي.. وسترى ما رسمته عن لوحات الفلمنكيين العظام.. رامبرانت وروبنز وفان دايل وفان جوخ.. وستتسمر أمام الحرس الليلي ودرس التشريح وزهرة الخشخاش وعباد الشمس.. ولن تصدق أنها

ليست الأصلية وإنما مجرد نسخة نقلها العبد لله!.

- وما هو السبب الذي جاء بك إلى هنا؟..

- نفس السبب الذي جاء بك!

- ليس هناك أي سبب.. في علمي على الأقل..

الليلة لم يتحدث الغباري عن الفن ولم يدافع كالعادة عن عمله كرسام ناسخ.. ولكنه سأله: لماذا لم توكل محامياً؟

- لم تخطر المسألة ببالي.. ما حدث لي مجرد خطأ سرعان ما يكتشفونه فيعتذرون لي ويطلقون سراحي!

انفجر علي ضاحكاً في سخرية فجة ورماه بالسذاجة والاستعباط:

- إذا كنت لا تفهم فتلك مصيبة! وإذا كنت تفهم وتستهبل فالمصيبة أعظم! ألا أنهم ما داموا قد اعتقلوك فلا بد أن توجه لك اتهامات لتصنع قضية.. لا بد أن تسدد الخانات وتكتمل الملفات.

وها هي خيوط العنكبوت تنسج حولك بمهارة، وقد بدا لي مما رويته عن تفاصيل التحقيق الذي أجراه معك اليوم السيد أبو قردان أنهم فتحوا ملفات والدك الرفيق المناضل وشقيقك شهيد القضية وبدؤوا يربطونك بقصة الشيوعية.. صدقني وأسرع بتوكيل محام وإلا..

وإلا ماذا؟ علي الغباري يؤكد أنني إذا لم أتحرك وأمارس حقوقي القانونية فسوف يعتبروني مقطوعاً من شجرة ويهملونني إلى ما شاء الله!

ـ هل يمكن أن يحدث هذا؟..

انتظر بسيوني الشرطي السجان حتى انتهت صلاة الجماعة وسأل عن الشيخ عادل.. وحين أشاروا عليه أسرع نحوه.. (أنا من طرف الدكتور شوقي.. وقد أرسل لك هذه الرسالة).. سلمه المظروف الصغير وأطلق ساقه للريح!

في غروب نفس اليوم زار عادل سراية الباشا.. أخيراً عرفت أين ذهب.. هو لم يسافر كما ظننّا.. شوقي مقبوض عليه وفقاً لقانون الطوارىء.. وهرب لنا هذه الرسالة لنبحث له عن محام يتولى قضيته..

.. كان الرسالة واضحة.. «بلغ نهيراً يا شيخ عادل».

بلِّغ نهيراً! أتراها استغاثة أم مجرد اعتذار عن الغياب؟ ربما لا تعرف على وجه التأكيد.. لكنها تشعر بالجزع برغم ارتياح خفي رسب في أعماقها لأنها أيقنت من براءتها وتخفَّفت من أحساس الذنب الذي خالجها لأنها تسبَّبت في رحيله.. وبين الكثير من الانزعاج والقليل من الارتياح أيقنت أن مشاعرها تجاهه لم تكن يوماً محايدة وأنها حين غضبت منه كانت تقاوم رغبتها الدفينة في الاستسلام.. نعم! هي تحب.. ولن تترك من تحب غارقاً في أزمته..

وحين تمرغت رأسها على الوسادة تلك الليلة.. كانت تراوغ النوم.. وتريد أن تمضي ليلتها تفكر في كل الاتجاهات التي تملك السير فيها.. من أجله..

وحين تسلَّلت خيوط الفجر من خلف ستار النافذة.. كانت قد نامت واستسلمت لحلم رأت فيه شوقي يجلس بجوارها تحت شجرة الجوافة!

# (14)

## جذور مقطوعة

في حجرة فخمة ملحقة بمكتب الرجل الكبير، جلست تتأمل ما حولها ومن حولها، في انتظار أن يؤذّن لها بالدخول.. قبلها لم تفكر طويلاً، كل ما خطر لها أن عليها أن تفعل شيئاً، كان شوقي بالنسبة لها لغزاً لم تستطع أن تحله بعد، ولكن جاذبيته من نوع ما ربطت مشاعرها به، رفضت أن تعترف بأن ما تحسه تجاهه هو الحب نفسه كذلك الذي مر بها في زمن فائت وقادها إلى أسوأ تجربة يمكن أن تمر بها فتاة في صدر شبابها، وربما بقيت بعدها وحتى ظهور الرجال الآخرين على فترات في حياتها تضع تلك التجربة التعسة حاجزاً تصنعها أمواج الهجوم العاطفي، لكن اقتحام شوقي لحياتها كان مختلفاً إذ تسلل ظلاً في خلفية المشهد الأساسي، كان في بداية سنوات جيرتهما الأولى مجرد ظل يعبر مرحلة طفولتها فلا يحرك داخلها أية مشاعر من أي نوع أياً كان وجوده محايداً، وحين رأته مرة أخرى بعد سنوات طويلة كان ظلاً له ملامح تجعله موجوداً خارج الخلفية، ويمتلىء بكل

التفاصيل التي تجعله شخصاً حقيقياً انعكست أولى نقاط إضاءته على وجه الشيخ عادل.. وعادل لم يكن بعيداً، كان يتمتع بذلك النوع من الحضور الذاتي لا يقاربك مباشرة ولكنه يقتحمك بدون أن يبدو فظاً أو متطفلاً، هي لا تذكر متى ظهر في سراية الباشا، ولعل ذلك قد حدث في فترة تجربتها المريرة أو قبلها أو بعدها.. فقط وطّد وجوده وأصبح بعد فترة قصيرة واحداً من أهل البيت كأنه خالطهم منذ سنوات طويلة بلغ من طولها أن نسي الجميع متى بدأت، كانت عاهته تعطيه تلك الحصانة التي تمنع عنه أي شكوك أو شبهات تقصي الآخرين عنه، وأصبح وجوده اليومي في السراية أمراً طبيعياً. أما غيابه فكان يثير القلق ويجعل الجميع يبحثون عنه.

وكانت إجادته للغناء مع رخامة صوته وتلك «العُرَب» التي ترتجف في صوته بترددات شجية تدفع الدموع في المآقي كوجبة يومية تدمنها الأم وابنتها وحفيدها الصغير، وبإحساس الأنثى الفطري لاحظت نهير أن اقتراب عادل منها ليس لأسباب الصداقة أو شبه الأخوة الذي كان يجمعهم بها حتى فاجأها ليلة حين طالبوه بالغناء أن همس بصوت أحست أنه يقصدها «سأغني الليلة لنهير وحدها»، الغنوة لم تكن من أدوار أو «طقاطيق» سيد درويش أو كامل الخلعي أو محمد عثمان أو غيرهم من الذين كان يفضل أن يغني لهم، كانت الأغنية على رتم غربي تقول كلماتها على لحن التانجو: أطلب عينيَّ، قلبي وعينيَّ فداك، غاليين عليَّ وأغلى منهم رضاك.

.. الجمال الذي حوته أنغام التانجو وحملته كلمات الأغنية كانتا تخرجان محملتان بهدهدة الباكي الذي اعتصر أحزانه كلها في نبرات صوته حتى لقد خيل إليها أنه يبكي فعلاً، وراحت تراقب ما بين نظارته السوداء ومسارب الدمع تحتها، واكتشفت أنه لا يبكي وأن مشاعره تعبِّر عن أحزانه في صوته كلما غنى، وأدركت لأول مرة أن هذه الأحزان موجودة حتى في أكثر أغانيه مرحاً وسعادة.

تأثرت بشدة ولكنها فطنت في نفس الوقت أن تأثيرها لم يتطور إلى مشاعر الحب وأدركت أيضاً أنها تحمل للشيخ عادل شفقة من نوع خاص، قد يكون في حالة ما أقوى من الحب، اجتذبت ذكريات الشيخ عادل صاحبه الآخر الذي يناقضه في كل شيء، وقد كان شوقي أستاذاً جامعياً مثقفاً يجيد الحديث والتحاور مع الآخرين بمهارة، كانت هي أكثر ما لفت نظرها إليه وحين راح يذكرها بأحداث في الطفولة لم تكن قبلاً تذكرها، فوجئت بأنه استطاع أن يفرج عن كل ذكرياتها وجعلها تطرح أمامه كل ما حدث لها وكأنما اكتشفت فيه صديقاً حميماً كان مغترباً ثم عاد، وكانت عودته قدراً انتظرته طوال عمرها.

أفاقت على صوت مدير المكتب يطلب منها التوجه لمقابلة الرجل الكبير، وكان الرجل كبيراً بالنسبة لأسرتها فقط إذ كانوا يصنعون منه «طوطما» ينتمون إليه. رأته في مناسبات قليلة من بينها حفل زواجها، وكان كل من يواجه مشكلة في

أسرتها لا يجد معيناً غير «رجائي بك» هي لا تعرف على وجه التحديد طبيعة خطورته أو مركزه المميز الذي يجعله ملاذاً للجيمع، تعرف فقط أنه رأس عائلة الباشا، وأن لديه مفاتيح كل أسرار وأخبار الجميع.

جلس في ضوء الشمس المتدفق من خلال النافذة العريضة يبتسم وهو يرحب بها: أهلاً بالغزال الشارد الذي أتعب قلوب شباب مصر بالجري خلفه.

لم تستمر المجاملات طويلاً فقد طالبها بالدخول في الموضوع، وحكت له عن جارهم الأستاذ الجامعي الذي توجه إلى الكلية التي يعمل بها ذات صباح وفوجىء بالقبض عليه وبعد مرور ثلاثة أسابيع لم يستطع أحد من أهله ولا أصدقائه أن يتصل به أو يعرف مصيره.

نظر إليها طويلاً وسألها وقد تحولت ملامح وجهه إلى قناع لا يبدي ما خلفه. اسمه؟ أجابته: د. شوقي رياض.. تقولين إنه اختفى في حلوان؟ حسناً سأحاول أن أعرف أخباره.

شكرته ونهضت لتغادر لم تصل حتى إلى الباب وأوقفها نداؤه:

ـ ما علاقتك الحقيقية به؟

أذهلها أن السؤال لم يفاجئها بل بدا منطقياً ولا بد لرجل كرجائي بك أن يسأله.

في السيارة التي كانت تقطع الطريق إلى حلوان ظل السؤال يدق في رأسها متراقصاً، ما علاقتك الحقيقية به؟ وراحت في ذهنها ترد عليه بسؤال آخر: لماذا قال علاقتك الحقيقية ولم يقل علاقتك فقط؟ مثل هذا السؤال لا يقال إلا في حالة اعترافها بعلاقة مزيفة والرجل يريد منها أن تعترف بالعلاقة الحقيقية، هل بدا في نبرات حديثها وهي تحكي له عن شوقي خفقة من نوعٍ ما جعلت الثعلب العجوز يشك في شيء؟ ولكن فيم يشك؟ في علاقة حب مثلاً.

لن يحدث.. لن يجبرها مخلوق على الاعتراف.

عادت لتجد الشيخ عادل، لم تسمع صوته قبل أن تراه ككل مرة بل كان صامتاً وحزيناً، ولن يحتاج الأمر جهداً لتجعله يتكلم.

ـ عرفت منذ قليل أن شوقي قد نقل إلى معتقل بعيد في الصحراء الغربية ومن المستحيل أن توجد وسيلة للاتصال به، الأمر الذي يذهلني ويحزنني بالفعل أن يحاط شوقي بكل هذه الإجراءات التي لا تنبئ إلا بمصيبة سوداء، ماذا فعل؟ في الحق لا أعرف.

فوجئت بنفسها وبدون أي مرر إلا خاطر مر بعقلها كلمحة شهاب اشتعل وانطفأ في أقل من ثانية كانت تصيح به: بل قل إنك تعرف. وسر اختفاء شوقي وكل ما يحدث له هو سرك المكنون في صدرك!

## (15)

## زورق المساء

كان يعرف أنه قد سقط في هوة لا قاع لها، وكان صعباً أن يتقبل هذه المعرفة بسهولة.. بالتحديد لم يستسلم لها ويقر بها في أعماقه إلا في رحلة الصحراء حتى لقد تبدَّت له أيامه في سجن العاصمة بعضاً من حلم ثقيل أفاق منه حين توقف قطار الواحات مع إشراقة شمس لا يوجد سواها في محيط النظر، لقد سبق له أن عاش في كنف الصحراء قبل ذلك في سنوات زواجه وإقامته في أسوان وقبل أن يقبلوا طلبه للتعين في جامعة حلوان.. أي أنه تطعَّم بمصل الصحراء منذ زمن طويل، لم يستغرب قط مرأى تفاصيلها بل كان إحساسه بتلك التفاصيل إحساس عاشق يحفظ عن ظهر قلب ملامح فتاته، وكان الأفق هناك هو نفس الأفق المطل على الجرود والكثبان.. تبدو السكينة والإحساس بالانتظار والحلم بشتى الاحتمالات هي سره المفضوح.

قيل له حين هبط من السيارة اللوري التي أقلته ومن

معه من محطة القطار إلى موقع المعتقل أو المعسكر كما كان يسميه رجال الحراسة فيه إن المكان يعبر عن حقيقة الحالة فليس هناك جدران، ولا أبراج حراسة ولا تغلق فيه أبواب أو بوابات، وكان يسمع لأول مرة عن المعتقل المفتوح الذي لا تحيطه أسوار ولا توجد به أي من وسائل تقييد الحرية، فقط يجب أن يكون مثل هذا الذي ألقوه فيه، اللهم إلا إذا كان من نزلائه من يمكنه قطع ثلاثمائة كيلومتر هي الطريق إلى أقرب مكان مأهول، وأجابت هذه المعلومات على دهشته حين رأى المكان لأول مرة.. مجرد ثلاثة هناجر مبنية على طراز معسكرات الجيش تديرها قوة من جنود الشرطة يرأسهم ثلاثة ضباط والمأمور كلهم مزوَّدون بالسلاح الخفيف.

مجرد بنادق آلية وعصي ودروع فض المظاهرات والتجمعات، فيما بعد حين توطدت علاقته بالرائد صلاح بدوي تفاخر أمامه بأن مصر هي ثانية دول العالم التي تطبق نظام المعتقلات المفتوحة. لم يكن سجناً بالطبع ولكنه أيضاً لم يكن منتجعاً سياحياً أو مكاناً للاستراحة والاستجمام. ومعنى «المعتقل» يكمن فيه بقوة وجوهر أن يحرم الإنسان من ممارسة حياته كما يريد تتجلى في أيامهم به وكان الفضاء الذي يسود «الوجود في المكان» يبدو أحياناً كتحدٍّ لفكرة الاعتقال في حد ذاته.

كيف يستطيع أن ينجو بانتباهه للزمن؟ وكيف يبقى مرتبطاً بذكريات كل ما حدث في حياته حتى ذلك الصباح

البائس الذي سلمه للغربان؟ كانت هذه معركته التي يجب عليه أن يتحمل مسؤولياتها بكل قدرة لديه على المقاومة في حيز لا يزيد على ثلاثة أمتار طولاً وعرضاً.

كان سريره والصندوق الخشبي الذي يحمل متاعه التافه وكان يتوق إلى صورة لنهير يضعها بجوار رأسه على سطح الصندوق. كان الكثير من الزملاء في العنبر يمتلكون صوراً مثيلة وضعوها في أطر أنيقة، وتساءل ساخراً ألم يكن حرياً به أن يتنبه لحكم المصادفة ويأتي بصورتها معه ذلك الصباح؟ كان يفكر فيها طوال يومه حتى حين يعمل في المزرعة التي جندوا أنفسهم اختياراً ليقضوا فيها نهارات الأيام التي تمر..

ولا تمر أيام تتمدد متثاءبة على فراش من أشواك نبتت في أدمغة من يجرونها وقد تعلق نيرها بأعناقهم، «وإذا كانت الأيدي مغلولة إلى الأعناق فماذا يستطيع من يجاهد ليبقي رأسه على كتفيه»، قال له عباس بن درنكة: «ما تهدش حيلك في الفكر يا ولد.. عديها تعديك وتوصلك». كان عباس وارد رحلة أقدم، وكان من شعراء العامية الذين حققوا قدراً معقولاً من النجاح على مستوى الشهرة، فقد كان معروفاً لدى حلقة من زملائه والمتصلين به من الملحنين وأهل المغنى «مع إني والله العظيم لا أكتب أغاني».

ـ أنت توثق انتماءك إلى الشعر والشعراء لذا تأنف من لقب كاتب أغاني أو زجال.

ضحك عباس بطريقته الصعيدية التي تجلجل في أرجاء العنبر لتلفت أسماع الغافلين وتثير فضولهم لمعرفة ما الذي يضحك شاعر المعتقل الحزين.

ـ لماذا يسميك زمل المعتقل بالشاعر الحزين؟

ـ تريد أن تشربني يابتاع مصر يا بندري.. اسمع ما سوف أقوله لك جيداً.. لا يوجد شاعر بلا أحزان، والشاعر الذي يتقافز على كل الأسطح والفروع لكي يغني مرحاً هو شاعر مزيف وغير حقيقي.. أنا أحزن إذن فأنا شاعر.. هكذا قال ديكارت.

ـ يا رجل ديكارت لم يقل حكمتك البليغة.

ـ ديكارت لم يكن حزيناً ليكون موجوداً وإنما كان يشك فيفكر فيكون.

ـ آه ثرثرة المثقفين الماركسيين إياها ولكن ما قولك في أني مثقف أكثر منك وأعمق وأعظم؟ وتدور ساقية الكلام بلا توقف ولا يتدفق منها غير تحطيم كثافة وتسلط ساعات الزمن الاعتقالي!

وحكاية الزمن الاعتقالي كانت اختراعاً خاصاً بالمهندس عمانويل بطرس الذي تبين لشوقي بعد أيام قليلة أنه كان منظِّر المجموعة «دخلوا جميعاً دفعة واحدة فاحتفظوا بأنفسهم بتكوينهم التنظيمي».

قال له الرائد صلاح وهما يجلسان على التبَّة الشرقية خلف المعسكر في ليلة متعتمة عن زمن الحكي بشهور: اسمه الثلاثي عمانويل زخاري بطرس واحد من ألمع العقليات الهندسية في مصر وفي أي تخصص؟.. الهندسة النووية! وتكالبت عليه العروض المغرية من مختلف أنحاء العالم، ولكن عقيدته وقفت جحر عثرة في طريق مجده.

مستهولاً سألته: تقول عقيدته؟ لعلك تمزح؟

أجاب صلاح وهو يهز رأسه مؤكداً: لا أقصد طبعاً عقيدته الدينية، أقصد إنتماءه السياسي للفكر الماركسي اللينيني.

ماركسية لينينية؟! أوقف لسانه قبل أن يسأله: وما أدراك أنت بالماركسية اللينينية ناقص تحدثني عن التروتسكية والماوية وتحريفية الرفيق تيتو.

وكأن صلاحاً قد حدس ما امتنع شوقي عن قوله فاستطرد مفسراً: كثرة النوح تعلم البكاء، وقد عاشرت الماركسيين في هذا المكان ردحاً من الزمن ولقيت نسخاً عديدة من الرفيق عمانويل بل وعرفت من هم أكثر باعاً وأقوى عقيدة!.

أحس شوقي بالمرارة: كل ضيوف المعتقل جاؤوا لقضية أو بسبب قضية فمن أجل أي شيء جاء هو؟

تبدَّت أمامه حياته فارغة خاوية تدور أيامه حول نفسها

لتكرر في رتابة محزنة ولم يملك نفسه من الانغماس في مشاجرة وصلت إلى حد التماسك بالأيدي وتبادل الكلمات وأقذع ألفاظ السباب مع شاعر المعتقل الحزين حين اتهمه في أحد المساءات الخريفية الباردة بأنه هو نفسه من أرشد عن شقيقه شهدي، وأن الخيانة تجري في دمه منذ كان صبياً.. اتضح من مسار المشاجرة أن الرفيق عباس قد جمع معلومات كافية عن شوقي الذي لا يعرف من أين استقى صاحبه تلك المعلومات.

ـ كل هذا الكلام هو ما واجهوني به في التحقيق، وهي كلها أكاذيب وأوهام من يريدون تلبيسك قضية أمن دولة.

ضحك الشاعر الحزين وهو يواجهه: وقد نجحوا.. أليس كذلك؟.

# (16)

# في الفيافي

قال شوقي فيما بعد: لا أعرف أو لا أذكر مَن مِن رفاق المعتقل كان أول من همس لي عن كنز الواحة المتنقلة لكنني أذكر جيداً تلك التي جاءني فيها عباس وهمس في أذني: «ما رأيك لو قمنا برحلة؟»..

عن أي رحلة تتكلم أيها الشاعر الحزين؟

كان أول مرة أسمع فيها عن الواحة المتنقلة حين سمعت من عباس لم أصدق وظننته يردد بعضاً من أحاديث الأساطير أو «حواديت» الجدات في ليالي الشتاء وكيف يمكنني وأنا أستاذ جامعة وأعد نفسي مثقفاً حقيقياً أن أصدق خرافة تتحدث عن واحة لا تثبت في مكان وأنها قد تكون مرة في اتجاه الشرق ومرة أخرى تقع في أقصى الغرب.

- لعلك تمزح أو تريد تسلية أيامنا المتشائبة في هذا المكان!

ـ لو أن أحداً من الذين سافروا إلى الواحة قبل هذا لم يعد لكان رأيي مثل رأيك، ولكن بعضهم كان يعود يا صاحبي.

عاجلته بلهفة ساخرة وأنا بعد لم أزل في منطقة الشك: وماذا قالوا هؤلاء الذين عادوا من واحتك الخفية؟.

ـ فلتسخر كما شئت، الحقيقة أن منهم واحداً موجوداً بيننا الآن.. هل جلست مع زايد وتحدثت معه.. زايد الأخرس؟! حقاً لقد أحسنت الاختيار يا شاعر آخر زمن.

كان زايد أول من لقيته يوم دخولي المعسكر واكتشفت بعد وهلة قصيرة أنه لا يتكلم ولكنه يسمع جيداً وقال لي الدكتور نجيب طبيب المعسكر إنه نوع من الخرس الهستيري الذي يحدث عادة نتيجة لصدمة عنيفة لا يريد صاحبها أن يبوح أو يتحدث عنها فيضرب عن الكلام بأسره. إذن فقد استشهد عباس على روايته المزعومة بشاهد أخرس لا يتكلم.

أفقت من شرودي على صوته مرة أخرى يهمس في أذني: ما رأيك في أن نجرب؟ نظرت إليه مستنكراً وتفحصت ملامحه جيداً إذ خطر لي أنه ربما كان واقعاً تحت تأثير جرعة (عرق البلح) الذي يعشقه ويعيش معه كل ليلة ولكنني وجدته جاداً وملامحه توحي بنوع من الإصرار الذي يبدو على كل من يتخذ قراراً، ومع ذلك قد رددت عليه ساخراً: ولماذا لا نجعلها رحلة جماعية تضم معنا باقي نزلاء المعتقل؟ دمدم متذمراً وهو يبتعد عني: الكلام مع أمثالك مضيعة للوقت!

ظننت أن حديث الواحة المجهولة قد انتهى عند هذا الحد لولا أنني فوجئت بأن الموضوع قد سيطر على رأسي طوال الليل بسؤال ظل يتردد في أعماقي رغم كل محاولات النوم.. وماذا يغري في هذه الواحة حتى يركب الإنسان مركب المخاطرة في هذه الصحراء الشاسعة التي لا يمكن أن ينجو منها عابر لا يعرف شيئاً عن مسالكها أو مساراتها؟

- يقولون إن بها كنزاً مخبوءاً تركه بعض جنود روميل الهاربين بعد اندحار قوات العاصفة في العلمين، ويقول البعض الآخر أن الواحة بها عيون مياه جوفية تشفي من جميع الأمراض وتجدد خلايا الشباب، وهناك من يؤكدون أن بها قصراً مسحوراً كقصور ألف ليلة وليلة بناه الطوارق الذين نجوا من طوفان أتلانتس.. قالها لي صلاح ضابط المعتقل وعيناه تلمعان ببارق من الفضول والحلم.

- وهل هناك من استطاع أن يقوم بالرحلة ويعود؟.

بدوره أكد لي أن زايداً شاهد حي.

- والذين لم يعودوا؟ أفزع السؤال صلاحاً بدرجة أذهلتني ولم يلبث أن ابتعد عني مغمغماً: تلك أسرار المعسكر ولا يمكنني الحديث فيها.

أسرار أيضاً إذن فلم يكن عباس مخموراً.. كنت أعرف أن المدن الضائعة والواحات الغامضة جزء من تراث المرويات الشعبية لدى كل الشعوب، وأن الصحراء لها تأثيرها الخاص

على روادها وقد شملني أنا أيضاً هذا التأثير: استغرقتني تلك المساحة التي لا بداية لها ولا نهاية وأبعدتني تماماً عن العالم خارج الصحراء وفي خلال شهور قليلة لم تبق في ذاكرتي البصرية غير ملامح نهير جالسة على المقعد تحت شجرة الجوافة وبيدها كتاب، وأعتقد أنها ربما كانت بدورها تعيش صحراءها الخاصة، ولكن صحراء نهير لم تَعْدُ أن تكون حالة ذهنية غير صحرائي تلك التي جعلت عالمي الحقيقي هو المعتقل والفيافي المحيطة به.

التقيت بعباس في حصة الغداء كانت نظرته لي عابسة مليئة بالسخرية، ولم يلبث أن أشاح بوجهه عني. تابعته أحمل وجبتي وجلست بجواره وهو يأكل. لم يعلق بكلمة ولم يبد أي اهتمام بوجودي وبعد لحظات وجدت شخصاً آخر يتحدث على لساني: أما زلت تفكر في الرحلة؟ دون أن يلتفت إليَّ أجابني: وسأبدأها غداً. وعلى الفور أجابه الشخص الذي تقمَّصني: وأنا معك! أي خبل اندفعت إليه ومن ذا الذي أنطقني بهذه الكلمات وإذا كنت قد ندمت بعدها مباشرة فكيف أنسحب؟ خطر لي أن أخبر صلاحاً حتى يمنعني وقد فوجئت برد فعله على كلماتي.. لم أره من قبل ثائراً كما رأيته هذه المرة إذ هب واقفاً وقد أربدَّ وجهه وانتفخت أوداجه: لعلك لم تعرف قواعد البقاء في هذا المعتقل بعد؟ هذا المكان بلا أسوار وليست له أبواب يقف عليها سجانون.. إنه معتقل مفتوح.. تدخله قهراً ولكن لا أحد يمنعك من الخروج.. أخرج الآن وحاول الهرب ولن تجد من يمنعك.. الحكومة أذكى منك ومن أمثالك

الشيوعيين فلا ترتكب هذا الخطأ مرة أخرى! أعرف أنك تعوّدت الوشاية برفاقك منذ طفولتك وأنك خائن بالسليقة وقد قبلناك هنا لنعيد تربيتك. وخرجت من لقائي بصلاح ذاهلاً لا أعلم أهو معتقل حكومي لمعاقبة الشيوعيين أم هو معتقل شيوعي لإعادة التأهيل؟.

لم يجد أمامه غير أن يذهب للرفيق العجوز عمانويل بطرس ويضع حيرته بين يديه وضحك الرجل ضحكته اليسيرة المبتورة: هو على حق حين أخبرك أن الحكومة أذكى منا جميعاً وأنا شخصياً أشك في أنها قد خترعت حدوتة الواحة لتدفع أحدنا بعد الآخر لمحاولة الهرب (الرفيق عمانويل كان يؤكد أن الواحة ما هي إلا الحرية فهي معنى وليست مكاناً وأن كل من يقبل على مغامرة البحث عن الواحة إنما كان في الحقيقة يبحث عن حريته) وبالتالي فقد غضب منك الضابط صلاح لأنك تريد أن تكذب قصة الواحة! تركت الشيوعي وغرقت في طوفان من الأسئلة المتلاطمة يأخذ بعضها بخناق البعض.. لماذا الشيوعيون الآن والوقت وقت جماعات السلفيين وعصابات الإرهاب؟ ولماذا أتوا به وملفاتهم تقطع بعدم وجود أي صلة بينه وبين الشيوعيين حتى من أهله؟ وما الجدوى وهم يحرضونه بطرقهم الخاصة على الفرار إلى الواحة؟.

في منتصف تلك الليلة قرر أن يغامر ويصحب عباساً في رحلته.

## (17)

## حكي الرمال

منذ اللحظة الأولى تولّى الشاعر الحزين قيادة الرحلة ونصَّب نفسه مرشداً.

على تبة الضحى جلس. الشاعر يلقي بالتعليمات وشوقي يستمع:

ـ سنبدأ مع غروب الشمس بعد أن تنكسر حرارة النهار.. سنسير ليلاً وننام نهاراً.

هذه أول خطوة وربما التقينا بقافلة في الطريق ننضم إليها ونأتنس بالمسافرين فيها..

إذهب الآن ونم الساعات الباقية حتى موعد الرحيل.

وكأي تابع غشيم أطاع شوقي وانتحى بركنه في العنبر الخالي (كان سكانه قد ذهبوا للعمل في مزرعة المعتقل) تمنى أن يواتيه النوم سريعاً وأغمض عينيه، وكما تعوَّد في حياته كلها عليه أن يختار فكرة تشغله أو سؤالاً يبحث عن إجابة

عنه لينزلق إلى سرداب النوم العميق، اختار هذه المرة أن يفكر في أي سبب لقيامه بمغامرة الارتماء في أحضان صحراء تبدو كأنها الربع الخالي، وكان السؤال الذي تركه على حافة اليقظة: لماذا لم يصحبه رفيق رحلته إلى حصة النوم؟

وأدهشه وقد استسلم لغاشية الأغوار السحيقة أن يرى أباه وشقيقه الشهيد وهما يشاركان الرفاق في العمل بالمزرعة وأدرك أنه يحلم ولكنه لم يقاوم وترك نفسه ليتابع النقاش الحاد الذي جرى بين الأب والشقيق من ناحية، وعباس من الناحية الأخرى.. كان يشاهدهم دون أن يسمع كلمة من نقاشهم الذي لاحظ أنه يدور حوله هو بالذات كانوا ينظرون نحوه بين الفينة والفينة ويشيرون بأصابعهم في اتجاهه ومع إدراكه هذا فقد قرر في داخله بخبث من يعلم أنه يحلم بأن يعاقبهم بالصمت ويتركهم لينفجروا حول أنفسهم فظل صامتاً ونسي كل شيء وساد أعماقه سلام استمر حتى النهاية.

أيقظه عباس حين انحدرت الشمس إلى المغيب ووجده قد تولّى عنه إعداد مؤونة الرحلة في حقائب جيش قديمة من القماش السميك يتم حملها على الظهر وتحوي زمزمية مياه وأدوات إسعاف أولية وعلب أطعمة محفوظة مع «الزلوط» الصعيدي وخبز «البط البحراوي» جمعها من بعض الرفاق ومسؤول الكانتين في المعسكر.. ابتسم وهو يتذكر أيام «الكشافة» في المدرسة ورحلات الجوالة في الجامعة، «يعني

متدرب سابق ولا تنقصني الخبرة».

نخر عباس بأنفه ساخراً وهو يعلق: ولكنك لن ترجع للست «مامتك» آخر النهار.

بادله شوقي المزاح بأنه سيعتبره «مامته» طوال الرحلة.

أطل قمر بدا وكأنه سيلامس ذلك الكثيب الرملي عند حافة الأفق حين التفت عباس إليه متفاخراً: اختياري لليوم كان دقيقاً فستكون ليالي الرحلة كلها مقمرة ولن تنتهي إلا مع تآكل البدر وتحوله إلى المحاق.

- ولكن أرأيت كيف ابتسم لنا الضابط صلاح حين لقينا ونحن نعبر السياج الخلفي للمعسكر.. إنه لم يكتف بالابتسامة بل غمز بطرف عينه وكأنه يشجعنا؟!

- لا أعرف هل أنت ساذج حقاً أم تتظاهر بذلك. إنه يا حضرة الرفيق المناضل كان يسخر منك وكأنه يقول لك «باي باي وابقى قابلني» فقد مر عليه كثيرون من الرحالة قبلنا ولم يعد منهم أحد.

- بشَّرك الله بالخير وشكراً لرفع الحالة المعنوية.

ساد بعدها صمت طويل بدا خلاله عباس وكأنه يطارد شيطان شعره بينما كان صاحبنا شوقي يردد في أعماقه سؤالاً عن المسافة التي سيقطعانها قبل أن تكل السيقان وتتصارع الأنفاس، وطمأن نفسه بأنه قد أقلع عن التدخين

منذ سنوات بعد أن أصيب بدور «التهاب رئوي حاد» وقال له الطبيب بعد أن شفي محذراً: توقف عن التدخين فقلبك يشاور عقله. لم يكابر بل أحس بفزع يزلزل كيانه ولم يدخن سيجارة واحدة بعدها ولكن السير في الرمال أكثر إرهاقاً ومشقة برغم «الكوتشي« الخفيف الذي انتعلاه.

وحين اشتكى أجابه عباس بلهجة مقتضبة أقرب إلى التأنيب: بعد قليل سنصل إلى «المدق» وسيكون صلباً ولن تغوص قدماك الرقيقتان. كانت تبدو على الشاعر الحزين تجليات خبرة قديمة (أخبره ذات ليلة أنه تدرَّب طويلاً على طوابير الذنب التي كان يسير في كل منها ما يزيد على الخمسة كيلومترات تحت سياط جنود السواري الراكبين) ولكنه - شوقي - تذكر أن أطول مشوار قطعه في حياته هو سيره بطول الطريق المرصوف بين منزله في أسوان ومكان عمله في الخزان.

كانت مرة وحيدة ولم تتكرر.

فجأة أفاق من شروده على ضحكة عباس، التفت إليه مستفهماً فبدا وكأنه شخص آخر مليء بالحيوية والتفاؤل بل والشقاوة أيضاً، لم تطل دهشة شوقي فقد قطعها عباس في واحدة من غزواته التي كانت تنتابه كلما هادنه شيطانه.

عرفت الآن ما قصد الشاعر الذي قال «وعند الصباح يحمد القوم السرى» وعندما تشرق عليك شمس الغد وتضربك

بسياطها فستفهم أنت أيضاً معنى البيت ولكن أتعرف أن شعراء الجاهلية والمخضرمين وما تبعهم منذ كعب بن زهير وحتى المتنبي.. كل فيلق الشعراء الفطاحل الذين نملأ حناجرنا بأبياتهم الفخيمة كانوا كذلك لأنهم أبناء البادية وأصحاب القوافل التي جابت صحراء شبه الجزيرة ولم يكن لهم من وسيلة تعبر غير الشعر.

- لعلك تذكرت معلقة امرىء القيس قفا نبكي... ولكني لا أعرف حتى الآن لماذا وصف الليل بموج البحر الذي أرخى سدوله عليه بأنواع الهموم ليبتليه.. أتعرف أنت المعنى يا شاعر الصحراء؟

- أول «ما شطحت نطحت..» تكلمني عن الشعر فتبدأ بامرىء القيس شخصياً.. سؤال.

كان الحوار يتصل بينهما حيناً وينقطع أحياناً ولكنه كان يقرب المسافة بينهما وكانت الخطوات قد وصلت إلى المدق حين أنزل عباس حقيبته عن كتفيه ودعا صاحبه ليفعل مثله ويستريحا قليلاً.

نظر شوقي إلى ساعته وهمس لصاحبه وهو يقعي بجواره:

- الساعة تعدت الثامنة بالكاد. وما زال الليل طويلاً.

## (18)

## ضفة المساء الأخرى

... وقد مضت الأسابيع تترى ونهير لا تسمع حساً ولا خبراً وبعد أن قطعت في بحثها مسافات لم تكن هي لتتخيل يوماً أنها ستقاربها، أحست بدبيب اليأس يتسرَّب إلى قلبها وبات غياب شوقي لغزاً مطوياً ولم تفلح في تحويله إلى قضية رأي عام حتى بعد أن ذهبت بالقصة إلى صحف المعارضة والمنابر المستقلة، وكانت قد قررت ألا تعاود الاتصال بقريبها صاحب المنصب الكبير بعد أن واجهها في اتصال تليفوني بلهجة تحمل الكثير من الجفاء والتبرم.

ـ أنصحك أن تنسي أمر صاحبك هذا، فهو متورِّط في قضية تمس أمن الدولة ولا يستطيع أحد أن يفعل له شيئاً فلا تسأليني عنه مرة أخرى!

ما يحيِّرها حقاً هو أن صورة شوقي كما عرفته تتناقض تماماً مع ما يوحي به الآخرون إليها عن حقيقة كانت تسكنه ولم ترها هي.. أي حقيقة؟

الرجل كان أوضح من كتاب مفتوح في عز ضوء النهار، بل كان جزءاً من إعجابها به وانجذابها إليه هو تلك البراءة التي افتقدتها في غيره وكثيراً ما خلت إلى أقرب صديقاتها وحدثتها عنه بفرحة تلمع في عينيها وهي تؤكد لها أنها عثرت أخيراً على الرجل المثال الذي طالما حلمت به حتى أمها التي فوجئت بحماس نهير..

- هل صارحته بمشاعرك هذه؟

- كلا يا أمي، فليس من طبعي أن أبادر وتجربتي القاتمة مع الرجل السابق قد أفقدتني القدرة على إطلاق العنان لمشاعري كما لو كنت أخشى لو عبرت عنها أن أبدو في نظره رخيصة سهلة المنال، ثم إننا ما زلنا نتلمس أول الطريق يقترب أحدنا من الآخر بحرص، فمثلي كان بدوره يحمل ندوب جراح سابقة ويخشى من الارتباط. ما أخشاه ويبدو أننا بالغنا في التمهل حتى ولَّت الفرصة وفقدته.

قاومت بكل ما تملك من قوة نفسية الاستسلام لفكرة الفقد وكانت لا تريد أن تصدق ما يقال لها أنه (راح وراء الشمس) حتى جاءها الشيخ عادل بآخر ما توصل إليه في البحث عن ابن خاله.. يبدو والله أعلم أن شوقي كان يخدعنا جميعاً وكان عضواً في تشكيل شيعي ويقال بل شيوعي وآراء أخرى تقول إنه كان عضواً بجماعة سلفية، اختلفت الآراء ولكنها أجمعت على حقيقة انتمائه لعمل سري من نوع ما.

كانت نبرة الشيخ عادل ترتجف بإحساس حقيقي بالأسى والحزن وأردف مكملاً:

ما يفجعني حقاً أنني ظننت نفسي أقرب الناس إليه وأنني بمثابة شقيقة البديل ولا أتصور أبداً أن يخفي عني مثل هذا الأمر، كان كل منا هو مستودع أسرار صاحبه وكنت أعرف عنه وبلسانه هو أدق تفاصيل حياته حتى تطورت العلاقة بينه وبين زوجته أقصد مطلقته وكيف تدهورت عبر السنوات حتى انهارت. كان من أسوان يراسلني ويهاتفني ويكشف لي عن متاعبه وأحزانه وكيف أنه يفكر في الطلاق منذ زمن لولا طفلاه، وكنت بدوري أكاشفه بكل أحوالي وضيقي بالعالم الذي لا أراه وبالناس الذين تخادعني أصواتهم فكيف؟ كيف تكون منغمساً في نشاط سياسي تحت الأرض ولا يحدثني عنه؟ بل كيف عجزت أنا عن الإحساس به؟..

تعلمين أن من كان مثلي يتمتع بنوع من الرادار التعويضي يكون بمثابة حاسة خاصة كالحواس الاستثنائية التي يخص بها المولى سبحانه وتعالى البعض من خلقه! هل أصابني عماها هي الأخرى؟

تهدَّج صوته حتى ليوشك على البكاء، كانت نهير تسمعه بأذن وأذنها الأخرى تسمع أصواتاً أخرى بداخلها.

من يكون هؤلاء الذين أجمعوا على اتهام شوقي؟ المنطق يقول إنهم من رجال مباحث أمن الدولة.. فما هي علاقة الشيخ

عادل بهؤلاء؟ تراقص السؤال في خاطرها ثم ولّى هارباً وانتبهت لكلمات عادل الأخيرة الباكية!.. نازعة من تلك النوازع الكامنة في أعماق النفس البشرية جعلتها لا تشفق على الرجل بل بادرته بسؤال: ألا يتم التحقيق مع الشخص المنتمي لتنظيم سري معاد للنظام ثم يقدم إلى المحكمة التي تبرئه أو تدينه؟

ـ هذا هو المفترض ولكنك لا تعرفين ماذا يحدث في كواليس السياسة وما ينتهجه أي نظام في التعامل مع أعدائه!

ـ تريد مني أن أصدق أن شوقي عدو للنظام؟.. شرفت يا شيخ عادل. وانفلتت تخرج بعصبية لا مبرر لها بينما تجمد الرجل في مكانه وابتردت الدنيا حوله وأحس برجفة من انتقل في لحظة من خط الاستواء إلى القطب الشمالي فيم أزعجتها؟ وظل السؤال يتأرجح مع خطواته ودقات عصاه وهو يخرج متعثراً على الممشى المؤدي لخارج سراية الباشا.

عمرها لم تتصرف مع إنسان بهذا الشكل ولم يسبق لها أن وجهت مثل هذه الطعنة لأبغض الناس إليها.. هرعت إلى غرفتها تسبقها دقات ندم مرير تسد عليها كل منافذ التفكير.

.. لماذا فعلت بالشيخ عادل ما فعلته؟

كانت تعلم جيداً ما يكنه لها الرجل من مشاعر، فهل تصورت في عقلها الباطن أنه جاء اليوم خصيصاً ليفقدها الأمل في عودة شوقي المظلوم ضحية الملابسات الغبية وليخبرها أنه حتى لو عاد فسيعود شخصاً مدفوعاً بالعداء

للنظام يحمل الخطر ليظلل به حياة كل من يرتبط به أو ينتمي إليه؟

هل كرهت أن يجسد الشيخ عادل أمامها خداع شوقي لها حين لم يصارحها بحقيقة انتماءاته السرية؟ لن يكون هذا من المنطق في شيء فكيف يصارحها شوقي بأمر على هذا القدر من الخطورة وهما ما زالا على مشارف الطريق؟ إن أركان الخداع لا تتوافر هنا ومن المؤكد أنه كان سيصارحها حتما عندما يحين موعد الارتباط.. ويحك يا نهير.. أصدقت أنت أيضاً حكاية انتماء شوقي السري؟.. إذن فليمت قيصر!

# (19)

## نقطة الاختراق

لم يطبق الليل بكامل ظلمته ولم تكن قد بلغت بعد درجة اليأس الكامل، ذلك النوع من اليأس الذي يصل بالنفس إلى درجة الإكتئاب ولا يبقي بارقة من غربة في المحاولة أو الفعل.

استيقظت في الصباح على هاتف يستدعيها لمقابلة قريبها إياه صاحب المنصب الكبير وأثار حماسها حين أخبرها بأن لديه أخباراً تتعلق بحبيبها الغائب، ورغم أنها كرهت الرجل في لقائهم الأول، إلا أنها أحست بامتنان لاهتمامه بالأمر ومراجعة ما قاله لها في السابق وأحبطه.

بابتسامة عريضة واجهها ونهضت ليلقاها ويدعوها للجلوس في صالون المكتب ويطلب من الساعي أن يحضر لها مشروب التحية.. غالبت دهشتها وتطلعت إليه مستفسرة:

ـ بتقول جنابك إن لديك جديداً يخص شوقي رياض؟

انتفخت أوداجه واتسعت ابتسامته وبدا سعيداً بنفسه لسبب لم تدركه نهير، واندفع يلقي على مسامعها بأخباره: شوقي كان تحت الاعتقال التحفظي وأودع معسكر الاعتقال المفتوح في الصحراء الغربية، وبالأمس فقط أسفرت التحقيقات والتحريات عن براءته من كل الشبهات التي أحاطت به وتسبَّبت في المأزق الخطير الذي تعرض له.

أحست بقلبها ينتفض داخل صدرها حتى خشيت أن يسمع الرجل خفقاته وتملكتها مشاعر لم تدر ساعتها أهي مشاعر الفرح أو الدهشة أو الحنق الذي يتملك الإنسان حين تضعه ظروف وملابسات ليس له يد فيها وسط حلقة جهنمية قد تحطمه وتودي به إلى الهلاك!

لم تكن هناك فرصة بالطبع لأن تناقش المسألة مع الرجل المنتفش أمامها كالديك الرومي والذي يرمقها بنظرات تحمل سؤالاً عن «الحلاوة» تماماً كالعدوي الذي يطوف بالشوارع باحثاً عن طفل ضائع وحين يجده يطلب من أهله الحلوان (وماذا بيدي أن أعطيك أي مكافأة يا حضرة المحترم؟).. ابتسمت وتمتمت بكلمات شكر مبتسرة قبل أن تتركه سألته بلهفة: وأين شوقي الآن؟

ـ معلوماتي أنه سيتم ترحيله إلى القاهرة ويتم الإفراج عنه في الحال... يمكنك أن تسألي في ذات السجن الذي كان مودعاً به قبل أن يصدر قرار الاعتقال.

ومن ثم هرعت تبحث عن الشيخ عادل ليذهب معها

وبصعوبة عثرت عليه في مقهى يرتاده مجموعة من المثقفين والفنانين، وكان يعزف على عوده ويغني أحد أدوار الشيخ سيد درويش.

حين خرج معها إلى الشارع وبدأت تحكي له ما سمعته ورغبتها في الذهاب إلى السجن لتسأل عن موعد وصول شوقي.. توقف الشيخ عادل عن السير وظل واجماً حين تعجلته همس وكأنه ينفجر:

- تطردينني من بيتك وتهينينني كما لو كنت كلباً ضالاً ثم تأتين الآن وتطلبين مني أن أذهب معك للبحث عن صاحبك؟

- شوقي ليس صاحبي يا مولانا، شوقي ابن خالك قبل أن يكون رجلاً عرفته ودفعتني أخلاقه العالية وصفاته الفريدة لكي أدافع عنه ضد ما حاق به من ظلم، وإذا كنت قد تركتك كما تقول فلأنك أفصحت في لحظة عن مشاعرك السلبية نحوه وأدنته قبل أن يدينه الآخرون، وما أظنك الآن إلا حانقاً لظهور براءته.

تركته لا تلوي على شيء بينما تجمَّد هو في وقفته تعصف به كل كلمة يتذكرها من كلماتها، وكان أكثر ما يؤلمه اتهامها له بأنه يكره شوقي، ووجد أن عليه أن يثبت كذب هذا الاتهام بكل وسيلة: تسارعت خطواته تسبقه عصاه ومضى إلى حيث يلقى «الجنرال».

لم يكن مدحت الخولي جنرالاً، ولكنه اللقب الذي أطلقه

عليه أصدقاؤه المقربون: كان مجرد رائد في أحد الأجهزة المعنية بالأمن القومي وكان يحب الشيخ عادل بشكل خاص منذ التقى به في حفل عيد ميلاد ابن شقيقته وقضى الليلة مستمتعاً بغناء الرجل الضرير الذي يتمتع بخفة ظل لا مثيل لها، ومن ليلتها ومدحت دائم البحث عن المكان الذي يسهر فيه الشيخ عادل حتى توطدت الصلة الشخصية بينهما وأصبحا صديقين بمعنى الكلمة، لذلك لم يصده مدحت ولم يوبخه أو يلومه حين جاءه ذات ليلة يحكي له حكاية ابن خاله الذي خرج إلى عمله، ووجد نفسه بالصدفة البحتة عالقاً داخل مظاهرة سياسية، بل اهتم بالأمر وأبلغه بما توصل إليه من معلومات، وتكرر الأمر نفسه حين جاءه اليوم يسأله عن حقيقة براءة شوقي والإفراج عنه.

قال مدحت: سنعلم الآن.. اجلس وبعد دقائق تكون لدينا الحقيقة. وبالفعل وبعد أن اتصل بشخص ما في مكان ما التفت للشيخ عادل وأخبره أن المعلومة صحيحة، وأن أمراً بالإفراج عن شوقي رياض قد صدر بالفعل.

ولم يتم مدحت عبارته حتى انبعث صوت جرس التليفون وكأنه يقاطعه، ظل فترة لا يتكلم وإنما يهمهم ولا يزيد على ترديد كلمة: نعم سعادتك: وهو كذلك، وأغلق التليفون ليبدو صوته في أذني عادل مليئاً بالخيبة.

- أسف يا عم الشيخ صاحبك الذي أفرجوا عنه اكتشفوا أنه هرب من معسكر الاعتقال.

كان الخبر صاعقاً وانتاب الشيخ عادل ذلك الحزن الممتزج بالغضب (الأبله، الحمار يهرب يوم صدور الإفراج عنه.. أهناك سوء حظ لهذه الدرجة أم تراه نوعاً من الغباء المتأصل؟).

كان يسير على غير هدى وهو يفكر في مشكلة إبلاغ نهير بالحقيقة ولكنه لم يطل التفكير وحسم أمره.. لن أعبر مرة أخرى عتبات البيت الذي طردت منه.

على ضفة الفجر كانت رمال «المدق» وقد بلَّلها الندى تصدر ذلك الصوت الذي يشبه حفيف الأشجار تحت قدميهما، وكان الشاعر الحزين يتمتم بأبيات يعالج فيها وحي الليلة السابقة، وقال له شوقي: ارفع صوتك حتى أسمعك.

علا صوت الشاعر وقد اختار إيقاعاً موسيقياً للأبيات:

الليل يتيه بأشعاره،

والفجر يداعب أوتاري،

لكني لا أعرف ماذا أفعل بنهاري،

حين ألملم تحت الشمس.

وتوقف واستحثه شوقي: لماذا لا تكمل أبياتك؟.. ضحك الشاعر بعصبية وصرخ في هدأة الفجر المطل: طلع النهار وطار الوحي.

## (20)

## الدائرة المغلقة

قالوا لها إن المعتقل الذي هرب منه شوقي أكثر حصانة من قلعة مشيدة لا يمكن أن تهرب منها ذبابة، وندر أن يسمعوا عن محاولة هرب نجحت في السابق. كانت كل المحاولات تنتهي بفشل ذريع. والمدهش أن كل المحاولات كانت دائماً مرتبطة بحديث الجنة الضائعة والكنز المخبوء، ولهذا لم تقتصر شهرة المكان على حدوتة السجن المحصَّن الذي يستحيل الفرار منه، بل تكونت حول تلك الحدوتة مجموعة من الطلاسم والألغاز أوجدت عالماً أسطورياً أشبه ما يكون بعوالم ألف ليلة وليلة.

لسعته لفحة من هجير الظهيرة فأفاق من حلم طويل وثقيل الوطأة رأى فيه نفسه يسقط في بئر ملأى بالجواهر والأحجار الكريمة التي ظلت تتساقط من فوق رأسه حتى غطته تماماً، وصار يصرخ مستنجداً. ولكنه صراخ الكوابيس، فقد اكتشف أنه يصرخ بلا صوت وأن أحداً لا يسمعه فكانت

لحظة صحوته هي نفس لحظة يأسه واختلطت مشاعره بين فرحة النجاة وظلمة اليأس.. أدار رأسه يبحث عن رفيق سفر وجده على مقربة مندمجاً في نوبة غطيط تكسر الصمت السابغ في تحد مستفز، تمنى للحظة لو استطاع أن يكتم أنفاس الشاعر الحزين. أي شاعر هذا الذي يصدر مثل هذه الأصوات ربما كنا نفعل ذلك وبطريقة أكثر فظاظة، ولكن الشاعر بالذات لا يحق له هذا، تذكر وهو يضع الغلاية على النار قصيدة درسها ضمن مقرر الشعر العربي الحديث.. حيث وصف الأخطل الصغير (بشارة الخوري) حالة صمت تلم به وبالكون حوله فقال:

صمت يقظك فيه

خب النمل في ملس الرخام

ابتسم وهو يصب الشاي في قدحه مفكراً في معنى البيت، ووجه حديثه إلى رفيقه النائم وكأنه يسمعه..

ـ أرأيت هذا الشاعر وتعبيره البارع عن إحساسه بالصمت وبلاغة الصمت، وكانت لهجته مفعمة بالانبهار دفع النائم ليقظة حانقة وإذا به يهب مستيقظاً من نومه وهو يهتف محتجاً: ومن أدراك أنت بالشعر والشعراء، الأجدر بك أن تنكفىء على المانيفوستو أو أوراق «هيجل» فلعلك في النهاية يمكنك أن تفهم ما تردده كالببغاء.

كان شجاراً صباحياً لا معنى له، ولكن شوقي آثر أن

يصمت فهو يعرف ما يتمتع به الشاعر الحزين من قدرة على الإساءة إلى الآخرين، وقد شهد بنفسه ما فعله بالرفيق الصامت المتوحد الذي أحبه الجميع هناك، وكيف لخلاف عابر مزقه الشاعر بقسوة وسادية أشار فيها إلى الشكوك التي أحاطت بالفتى الصامت الخجول وإلى شكوك أخرى أشارت إلى (مثليته)، وفي اليوم التالي وجدوا الفتى المطعون صريعاً على باب المعسكر..

لم يتحمل المسكين قسوة الاتهام وبشاعته.. وجد نفسه هدفاً لاتهام لا سبيل إلى دحضه إلا أن ينزل وحياً من السماء يبرئه! كره الجميع الشاعر وتجنبوه لمدة طويلة كان خلالها يتلقى نظراتهم المليئة بالاحتقار، وكان يرد عليها بأوقح منها، بل اتخذ وضع الهجوم وأصبح هو من يبادر بالسلوك العدواني، وظل الموقف على هذه الوتيرة إلى أن برد وفترت حدته بعد حين لتعود علاقته بالجميع كما كانت.

تذكر شوقي ما حدث حين رأى في عيني الشاعر ذلك التعبير الذي رآه عشية يوم انتحار الفتى المطعون وأحس ساعتها بالرعب وخيل له في لمحة بارقة كاليقين، أن الرجل قادر على إفساد حياته بشكل أو بآخر، ولحظتها آثر أن يهرب من مواجهة الخطر.

«أي خطر؟ وكيف تواجهه؟» كان السؤال أكثر وضوحاً من الجواب! فالخطر هو الخطر ذلك الشعور الداهم بالعجز في مواجهة ما يعصف بك وما يهدد وجودك بالزوال، أما عن

وسيلة مواجهته فهي الهرب...

«ماذا حدث لكي يغزو الهرب عقله؟» هو يدرك في أعماقه أن فكرة الهرب راودته منذ الليلة الأولى لمحاولتهما الفرار من معسكر الاعتقال، وكان الآخر بدوره يفكر في نفس النسق.. إذن فكل منهما كان يدرك في أعماقه أن حكاية الكنز غير حقيقية، وإنما كانت مجرد فضول جامع لمعرفة ما يحدث لكل من يحاول الفرار ولا يعود، وكان السؤال الأكثر أهمية هو ماذا يفعل الهارب حين تفشل محاولته؟ هل يقعي بجوار كثيب رملي وينتظر حتى يوافي أجله أم يظل يتبع سرابه حتى تخور قواه ويقتله العطش؟.

لكن هل يخلو الأمر من احتمال آخر؟.. ألا يجوز أن يفلح أحدهم في الهرب؟ أين إذن يتحدد المصير.

المصير.. تلك هي الكلمة عليه أن يبحث عنها ويدعه من محاولات البحث عن أشخاص بحثوا عن الكنز وماتوا من أجله.

ارتجفت أطرافه بقشعريرة من يفاجأ بقبس من نور يضيء في ليلة حالكة الظلمة خيل إليه أنه قبس المعرفة.. ولكن هل عرف حقاً؟.

## (21)

## ليلة القدر

حين استيقظ لم يكن هناك عباس، ولم يكن هذا أمراً مفاجئاً فقد تكرر كثيراً، ولكنه فوجىء بجمال الليلة جمالاً مختلفاً تماماً عن أي جمال أحسه في مفردات الطبيعة من قبل. كان هذا جمالاً من نوع خاص يشع من داخله ليغمر ليل الصحراء الساجي حوله، ولم تكن هناك مناسبة ليفرح من أجلها أو تتلون مشاعره. حاول كثيراً أن يتذكر تاريخ ميلاده ولكنه فشل واكتشف أنه قد نسي، وفي سخرية داخلية مثيرة قال لنفسه إنها فرصة ليختار يوم ميلاده لنفسه. استند إلى جدار التلة الصغيرة ورفع رأسه يحركها ويخلصها من الرمال ولم يفارقه هذا الإحساس الغريب بجمال الليلة..! كان هناك قمر بالطبع فضوؤه يغمر المكان ولكن أين؟ هذا سنا القمر فعلاً ولكن أين القمر نفسه؟ دار بعينيه يبحث في السماء حتى لمح الشبحين من تلة بعيدة.

ظهرت نقطتان سوداوان تتحركان على جدار التلة

المنحدر نحو السفح، كانت الحركة بطيئة مما أوعز له أنها ستقطع بهما زمناً حتى يصلا عنده، لماذا يتحدث وكأنهما اثنان من البشر ولا يمكن أن يكونا وحشين من وحوش الليل؟ أنه يعرف أن «الكوجار» «الأسد الأمريكي» هو وحش ليلي لا يخرج إلا مع اكتمال الظلمة.. ربما كان فهداً أو نمراً ليس شرطاً أن يكون أسداً بالذات. ووجدها تسلية يضيع بها الوقت بأن يتابعهما: النقطتان السوداوان على منحدر التلة تتحركان في سرعة النمل. اكتشف حقيقة أخرى وهي أن بصره قد احتد وتمتع بجلاء ليس فيه. أين ذاك من المنظار الطبي الذي أوقعه الشرطي الغليظ وهو يدفعه داخل ممرات المباحث وداس عليه بقدمه «البيادة؟» داهمه فجأة إحساس بأنها الليلة الموعودة، أجل هي بالتأكيد ليلة القدر فتحت لحكمة لا يعرفها أمام باصرته هو بالذات مع أنه لم يكن متديناً بحق ولكنه حمل في أعماقه كل خبرة العمر في الاستماع إلى الأحاديث والحواديت والأساطير، ويذكر تلك الليلة التي كثيراً ما تجمع فيها هو وأولاد الأسرة على سطح بيت الجد هناك على بحر شبين وحاولوا جميعاً أن يبقوا على اليقظة حتى الصباح لأن طاقة القدر لا تفتح إلا لصاحب النصيب وبشرط أن يكون متيقظاً.. وها هي قد فتحت الليلة. ها.. ها.. هاي!! الشيخ شوقي نجيب يا حلاوة.

تذكر في نفس الوقت كيف كان الأب لا يركعها، واستعاد في أذنيه كل ما سمعه عن ذكريات ذلك الأب: ابعدوا عنه شبان الأسرة وإلا أفسدهم جميعاً فهو شيوعي ملحد لا

دين له ولا عقيدة، حتى في أسرته هو حاولت الجدة الحاجة نعمت أن توقظ أولاده من تأثير أبيهم وكثيراً ما تشاجرا بعنف حتى صممت عقب إحدى هذه المشاجرات أن تسحب منه الولدين، وصادف أن يحدث ذلك في أثناء لمَّة أمنية استمرت هذه المرة لأعوام.

ويذكر شوقي جيداً وجه جدته نعمت وحنوها عليهما لدرجة أنه وحَّد بينه وبين صورة وجه الأم الحقيقية الذي لم يره إلا من خلال صورة فوتوغرافية متهالكة، فكانت «نعمت» هي الأم الحقيقية بالنسبة له وقد دافعت عن وجودهما معها بشراسة حين خرج الأستاذ نجيب من المعتقل وحاول أن يستردهما، وقد وصلت المعركة يومها إلى درجة أنها أعلنت على رؤوس الأشهاد وأمام كل ممثلي الأسرة أنها براء من دم هذا الولد وحتى يوم القيامة. رفع أصابعه ليمسح دمعتين انحدرتا على وجهه ووجد نفسه يتساءل عن غضب كيف تسنى له بعد كل هذا أن يعيش حياته المتقوقعة التي لا تزيد عن حياة حلزون بحري ملقى على الشاطىء.

ساقه التفكير ثم أفاق ليبحث مردداً: حسناً.. أنا مؤمن وأصدق فلنبحث عن تلك الطاقة وما سوف نجده فيها، ثم هينم متخانفاً وكأنه يسخر من نفسه: ماذا يكون غير مصباح علاء الدين أو خاتم سليمان؟ ولكن بالطبع مثل هذه الطاقة لا بد أن يكون لها خادم وما عليه إلا أن يناديه ولكن بماذا؟ فمصباح علاء الدين لا بد أن تدعك المصباح، وفي خاتم

سليمان نفس الشيء، وحتى لا يوجد شاطىء هنا نرى عليه القمقم الذي حبس فيه عملاق ألف ليلة وليلة طوال قرون مختوماً باللعنة. أجلس نفسه بعد أن حاول بالفعل أن يتحرك وفجأة وجدهما أمامه شيخين من البدو مهلهلي الثياب تبدو عليهما آثار سفر منهك طويل لم يبد أنهما يقصدانه بالذات فقد ألقى كبيرهما عليه السلام عابراً مواصلاً طريقه فإذا به يشعر بانفلات الفرصة:

- حنانيك يا شيخنا أتترك الغريب في متاهته وتمضي في سبيلك.

لم ينظر إليه الرجل ولم يتوقف عند السير وتبعه صاحبه، كان العكاز الطويل يلقي بظله في المشهد الليلي مرافقاً لخيلات الثلاثة هما يسيران في المقدمة ويتبعهما صاحبنا إلى أين؟ لم يجيبا عن السؤال، ولكنه كان يشعر بأنهما يقودانه إلى مكان محدد، بل أكثر من هذا آمن بأنهما قد قطعا رحلتهما أصلاً من أجله.. فجأة أيضاً لم تعد الليلة جميلة وراح يفكر في عباس شاعره الحزين ويتساءل عن سر اختفائه وسببه مستعيداً ما يمكن أن يهيئه له ذهنه من احتمالات.. هو متأكد من أنهما لم يتشاجرا ولكن المشكلة تطرح أطرافها المخيفة على الشاطىء الآخر من التفكير.. أنه لا يذكر أيضاً إن كان برفقته شاعر يدعى عباس.

## (22)

## واحة التائه

وصلوا للواحة مع الخيوط الأولى لصباح لم يسبقه فجر. ظهرت الأشجار الكثيفة الواقعة دائر ما يدور ذلك الوادي الرابض عند سفح جبل ما.. وعلى مدى البصر خلف ظهر الأجمات الكثيفة كان يتدفق عبر دروب وصخور الجبل المخضوضر الذي لا ينتمي إلى صحراء الأمس بصلة..

سبقه الدراويش واختفوا بمجرد دخوله العتبات تحت السقيفة المظللة والتي تلقي شمس الصباح من خلال التكعيبة التي تظلها بقعاً من الذهب تمضي مع خطواته المترددة المندهشة.

لم يكن هناك أحد أو بالأحرى لم يَرَ هو أحداً ربما لأنها كانت ساعة بكور لم تتخلص بعد وسن الليل وبمجرد أن راوده احتمال أحس بالخدر يسري في جسمه كله وبثقل في ساقيه وانكسار في جفونه ولم يستطع مقاومة النداء وعلى مساحة معشبة تحت دوحة هائلة ألقى بكل ما معه على

الأرض واستلقى هو ليغرق في الغيبوبة!

لم يعرف أبداً قدر ما نامه من نهاره ولكنه حين استيقظ كان الليل في قمة يقظته وكانت الواحة الخالية مليئة بأناس لم يرهم من قبل، ولكن ذاكرته الدراسية هتفت داخل رأسه: لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقة ولا يمكن أن أكون قد قطعت تلك المسافة منذ تركت المعتقل فمن الجنون أن أتصور أنني في قلب الصحراء الكبرى وفي واحة يسكنها الطوارق هؤلاء البشر الغامضون الذين تحدثت عنهم كتب التاريخ والجغرافيا وتقول إنهم اندثروا أو كادوا ولم يتبق منهم إلا فصائل مبعثرة في شمال الصحراء المندمج مع جنوب بلاد الشمال الإفريقي في ليبيا والجزائر والمغرب، وكانت تصفهم بأنهم فرسان لا يشق لهم غبار سمر البشرة زرق العيون ورجالهم ملثمون أما نساؤهم فسافرات، وتحدثت كتب أخرى عن كونهم من الأمازيغ، وأخرى عارضت القول وأكدت أنهم أمة وحدها وربما كانوا من أهل قارة الأتلانتس المفقودة وهم من نجوا من الطوفان. وهو يرى فيمن حوله تلك الملامح الإثنية التي تحدثت عنها الكتب خاصة وهو لم يستطع أن يفسر كلمة واحدة على ألسنتهم، حاول التفاهم بشتى الطرق وبحث في دأب عن الدرويشين اللذين قاداه إلى هذا المكان، ولكنهما كانا فيما يبدو قد تبخرا.

ابتسم له رجل ملثم حين رفع اللثام وقال كلمات يقدم بها في لغته الخاصة صينية طعام فاخرة تحملها فتاة سافرة

تتمتع بهذا الجمال الصاعق الذي تمتزج فيه سمرة البشرة مع زرقة العيون.

كان جائعاً فأكل حتى التخمة وجاءت غادة أخرى معها طست وإبريق من الفضة لتصب له ماء يغتسل به وظلت واقفة تنتظر منه أن يتعرى تماماً لتصب عليه ماء الاستحمام وحين رفض اختفت لتجيء مرة أخرى، ومعها طارقي ضخم الجثة وأجبر شوقي على التجرد من ملابسه لتحممه الفتاة بماء من الينبوع الفوار المثلج ونوع من الأعشاب ذكَّره برعرع أيوب الذي كانوا في صغره يحممون به من يعانون من أمراض جلدية بعينها.

وجد نفسه بعد الحمام الإجباري ملفوفاً بعباءة مغربية وقاده الرجل إلى خيمة مفتوحة من جميع جنباتها وتحتها فراش وثير أرقدوه عليه ليأتي بعد ساعة مغن يحمل آلة موسيقية تشبه القانون وراح يعزف أنغاماً لم يسمع شوقي مثلها في حياته جعلته يكاد يبكي من فرط النشوة وحين انهمرت دموعه ثقلت معها أجفانه واستغرق في النوم مرة أخرى، وبينما كان على الحافة بين اليقظة والاستسلام للغفوة تذكر في هينمة الوسنان ما قرأه عن مهارة أبو النصر الفارابي الذي كانت مهارته في العزف على العود مضرب الأمثال، حتى قيل إنه كان يعزف في بلاط أحد أمراء الأندلسي فأشجاهم وأبكاهم جميعاً ثم عزف على مقام آخر فأضحكم وأفرحهم لدرجة أنهم رقصوا جميعاً ثم انتقل إلى مقام ثالث

فأنامهم بموسيقاه..

وأبو النصر الفارابي كان فيلسوفاً ولم يكن موسيقياً كزرياب وأمثاله فهل.. نام دون أن يكمل السؤال. دام السبات هذه المرة طويلاً.. طويلاً ربما لأيام أو هكذا كان إحساسه بالذنب حين استيقظ بعد حين وكان يحس بقشعريرة ينتفض بها جسده ورائحة بخور نفاذة تتسلل إلى أنفه وفتح عينيه ليجد نفسه نائماً على سفح الجبل في العراء ولا أثر للواحة ولا للطوارق ولا لغيرهم، ولكنه كان يرتدي العباءة المغربية التي ألبسوه إياها هناك قبل أن يأتي العازف الساحر.

كان يرتعد ورأسه يكاد ينفجر حتى أيقن أنه مصاب بالحمى ولكن السؤال هل أصيب قبل الواحة أو بعدها تلفت برأسه باحثاً ووجده على مقربة يجلس القرفصاء ويعد الشاي أو يطبخ أي شيء على النار. من ظهره عرف هو الشاعر الحزين طبعاً ناداه فالتفت إليه الآخر برأسه وصاح به: أفلت من الموت بأعجوبة.

شغفه الفضول فألحَّ عليه: ماذا تعني بإفلاتي من الموت؟ وأين كنت طوال هذه الأيام؟ وهل عثرت علي هنا في هذا المكان أم دخلت الواحة وأخرجتني. طلب منه الشاعر ووضع يده على جبيه: آه لم تشف من الحمى تماماً ما زال جلدك ساخناً والهلاوس تترى على لسانك.

صرخ وكأنه يستغيث: والواحة؟ والطوارق؟

ربت بيده على كتفه وهمس: فيما بعد حين تشفى تماماً سأجيب عن أسئلتك والآن واصل نومك أو انتظر حتى آتيك بقدح من الحساء الساخن فلك أيام لم تذق شيئاً.

أحس بجفاف في حلقه وتمنى كوباً من الماء البارد الذي كان ينحدر من الفوار إلى الواحة، وترددت في سمعه أجزاء من الألحان التي عزفها الطارقي الشيخ ومرة أخرى وهو على حافة الغفوة يتذكر نصر الدين الفارابي ويتساءل ألم يكن هو أيضاً من أصحاب اليوتوبيا والمدينة الفاضلة؟

## (23)

## نصف دائرة النهار

لم تعد بدورها تذكر متى بدأ اليأس يخالجها ولكنها أصبحت غير قادرة على مواجهة اللغز، أعياها البحث والتنقيب ومتابعة كل خيط يلوح لها وينتهي عند طريق مسدود وأحست بقواها النفسية تخور وتقعدها عن مواصلة الأمل، وأيقنت أن من قالوا لها إن شوقي قد ذهب وراء الشمس ولن يعود إلا إذا دار الزمن حول محوره وظهرت علامات الساعة لم يبالغوا لِمَ؟.. ظل السؤال يؤرقها رغم اليأس! ماذا فعل الرجل حتى يحكم عليه بالنفي المؤبد؟

ظلت تسائل نفسها ولم تلاحظ أن الآخرين.. الأم والشقيقات قد هالهم ما حدث لها من تغير ربما على مستوى الشكل وملامح الجسد فذبولها وامتقاع لونها وشرودها الدائم وانقطاعها عن مارسة عاداتها اليومية التي لم تخلفها من قبل جعلهم يظنون أن بها مرضاً تخفيه. وحاولت الأم أن تقنعها باستشارة الطبيب ولكنها ـ وهي التي لم يعل لها صوت من

قبل حتى إبان حكايتها التعسة مع زوجها السابق ـ فوجئت بنفسها وهي تصرخ في وجه الأم والأخوات اللاتي شاركن في محاولة إقناعها باللجوء للطب.

ـ ليس بي شيء ولا أشكو من علة فدعوني لشأني (هل يمكن أن تدمرها قصة حب في بدايتها) أم أن ما أصابها ليس إلا الحيرة والعجز عن فهم ما حدث.

وفي ذروة معاناتها لم يفتها ملاحظة الشيخ عادل وهو يطوف من بعيد حول حديقة سراية الباشا ويجلس ليلاً في نفس الشرقة التي كان شوقي يلزمها في بدايات الحكاية وتناهت إلى أذنيها نغمات العود وهو يداعب أوتاره فتئن وتذرف الدمع وتحاول مناجاة من صدته وأصابت عالمه بالسقم والمرارة، ولكنها أبداً لم تحس بالشفقة تجاهه ولم تغفر له مطلقاً ما كشفته من وَجْدِهِ على ابن خاله وغيرته منه ومحاولته القديمة لإقصائه بعيداً عنها كما بقيت في أعماقها رواسب الشك الذي خالجها حيناً حول دور عادل في اختفاء شوقي.

أما الشيخ عادل فقد تحطم من داخله في ذات اللحظة التي زارها خلالها في السراية لآخر مرة وغادرها وهو شبه مطرود، وظل ينزف داخل صدره حتى جزعت عليه الأم جزعاً شديداً وقد تحول بدوره إلى مجرد هيكل عظمي يحمل ثياباً.

ـ وآخرتها يابني؟ ماذا تريد أن تفعل بنفسك حقاً وماذا

تريد أن يحدث لي؟ ربما أردت أن تقتلني.

احتضن أمه وبكى على صدرها كما لم يفعل طفلاً. ربتت على ظهره وقد سقطت دموعها بدورها على وجهه: أكل هذا من أجل غياب ابن خالك؟ أتحبه إلى هذه الدرجة؟

انسحب هو من بين أحضانها وقد تحول بكاؤه إلى نشيج يرج جسمه كله وراح يتمتم بكلمات ممزقة الحروف لا تكاد تبين (شوقي يا أمي هو عذابي الأكبر الذي لن أبرأ منه حتى أموت) ولأنها لم تفهم معنى للحروف المبعثرة فقد دعت له بالهداية وسلامة المآل. صنع كل منهما ـ نهير والشيخ عادل ـ لنفسه صدفة اختبأ داخلها وانفصل عن محيطه ورغم ما يقال عن التعاطف الذي ينشأ بين رفاق الهم الواحد فقد كان ما بين الاثنين أبعد ما يكون عن التعاطف وأقرب ما يكون إلى الكراهية ولكنها كراهية مغلفة بمشاعر ا لذنب، كأن أحدهما يعتبر الآخر مسؤولاً عن ضياع سعادته ويعتبر نفسه في الوقت مسؤولاً عن شقاء الآخر.

هم حقاً لم يلتقيا منذ اليوم الذي أبعدته فيه عن سراية الباشا شبه مطرود ولكنها لم تفتأ تحس بثقل وجوده في محيط أيامها التي توالت بطيئة متثائبة تفتقد الطعم والمغزى، وبالمثل كان الشيخ عادل يمارس مشاعر عذاب لا مبرر له وابتعد عن دوائر نشاطه اليومي وانزوى في حجرته لا يخرج منها إلا ليجلس في شرفة شوقي المطلة على سراية الباشا وإذا خرج فليطوف حول الحديقة ولعله يفعل كما فعل ابن

الملوح (أمر بالديار ديار ليلى فاقبل ذا الجدار وذا الجدار) دون أن يعرف هل رأته أو أحست به؟

وكانت الإجابة تشعره بما نسيه طول سنوات تراكمت حتى صنعت عمراً وكيف يتسنى لك أن تعرف إلا أن ترى بعينيك أيها الأعمى تعتلج في صدره مشاعر الإشفاق على النفس والسخط على ابن الخال الضائع (ما الذي جاء به من أسوان وأقحمه في عالمك؟). تكثف وجود شوقي رياض في المكان رغم الغياب وأصبح محوراً في حياة الكثيرين ممن افتقدوه وأحسوا بلوعة الفقد ولكن مضي الأيام خلق نوعاً من اعتياد الغيبة.

صحت العمة ذات صباح تهتف متهللة بأنها رأت في المنام شقيقها رياض يبشرها بأن شوقي سيصل على طائرة المساء ويطلب منها أن ترسل الشيخ عادل ليكون في انتظاره.

وكما لم يفعل طوال عمره انفجر فيها ولدها صائحاً: لم يعد ينقصنا غير مناماتك الخرقاء.. شوقي ذهب إلى غير رجعة فاقلبي على سيرته ماجوراً.

وبكت السيدة كما لم تبك على عزيز مفقود وحين أحس عادل بالندم واحتواها بين ذراعيه ليعتذر لها هتف من بين شهقاتها: لم أبك منك بل عليك.. أنت من ضاع وليس ابن خالك.

غمغم عادل وهو يجر ساقيه إلى حجرته طعنة فوق

طعنات أخرى ولم تثخنك الجراح فقد تكسرت النصال على النصال.. فلا نامت أعين الجبناء وألقى بجسده على فراشه وهو يضحك ويبكي في نفس الآن.

وكان النهار قد انتصف في الصحراء وراح عباس يمسح على جبين صاحبه المحموم بقطعة مبللة وقد أرقده في ظل التلة الحجرية وراح ينصت إليه وهو يترنم في ذروة الحمى بكلمات مغناة على لحن غريب لا يفهم ولكنه يشجي ويدفع الدمع من العيون.

## (24)

## معزوفة الغيوم

هل تمطر السماء في الصحراء؟ سأل في حيرة وأجاب بعد لحظة وقد تحشرجت ضحكة مخنوقة في حلقه.

الصحراء لا تعبرها ولا تتكاثف في آفاقها غيوم تحمل مطراً. الصحراء صلعاء لا ينبت فيها إلا صبار لا يشرب الماء ولكنه يعيش. خارج رأسه كانت الأمور تبدو مضحكة وكان صاحبه الشاعر المحزون يتكلم ويضحك ولكنه كان عاجزاً عن سماع كلمة مما يقول، وبدت له تقلصات قسمات وجهه وهو يضحك كأنها تفاصيل من لوحة «الجورنيكا» لبيكاسو فتستطيل سحنته ليشبه رأس الحصان المرعوب في ركن اللوحة أو ذلك الوجه المسحوق لفتاة أو امرأة تحترق في الهولوكوست.

كان عباس قد أعد الشاي وراح يرشفه باستمتاع وهو يرنو له بنظرة حزينة نادمة.

ـ ليتني ما صحبتك إلى هنا.. الجو مكفهر ويبدو وأنها ستمطر.

من الأفق الغربي كانت تزحف مقتربة في سرعة وكأنها تلقت أمراً بالهجوم كان من المفترض أن ترتفع الشمس وتتعامد على محورها. لكن الغيوم أدركتها وفي رائعة النهار. أطبق ليل كثيف.. كانت السحب داكنة ثقيلة وتبدو قريبة جداً من قمة التبة وخيل إليه أنه لو مد ذراعه لأعلى للمسها وأحس بنشوة الاستحمام في العراء. نضا عنه كل ثيابه وراح يرتع ويتقافز تحت سيل من أمطار دافئة (أين هما الآن من خط الاستواء) ألم يكونا من سويعات في بقعة ما من الصحراء الكبرى في نقطتين «تمبكتو» السنغالية «وباماكو؟»..

لم تكن كتب الجغرافيا أيام الدراسة دقيقة إلى هذا الحد ولكن ربما كانت تلك الرواية القديمة لـ أنطوان دي سانت اكسوبري التي قرأها في مطلع صباه وفتنته طويلاً.

في تلك الأيام التي لا تشحب ذكراها من مخيلته كان يقرأ كل شيء من روكامبول وباردليان وفوستا إلى زولا وبالزاك وديستويوفسكي وميلر (كان الرفيق رياض لا يشاركه حب معظمهم وكان يصفهم بكتاب البرجوازية المتعفنة).. آه.. يا لهذا المطر. يبدو كما لو كان مطراً سرمدياً لا ينقطع ولا ينتهي وكانت الغيوم تتكاثف ولا تنقشع ولكن عباس كان قد اختفى بكل متاعه وآنية الشاي والقهوة التي تلازمه..

ومن يحتاج لأي شيء تحت هذا الغسل السماوي وبدأ النعاس يثقل أجفانه وسؤال يتأرجح على باله.. أين تنام الليلة ولا يوجد مأوى ولا مساحة من عشب؟ فلينم واقفاً كالخيول.

لم يدرك أنه يدور ويدور وتجذبه الدوامة إلى القاع فلم يحس بالتالي متى خارت ساقاه وتوسد الرمال الغارقة في هذا السيل المنهمر.

يحدث في الأزمان الصماء أن يفقد الإنسان حاسته القديمة في عد الأشياء وحساب تراكمها وربما فقد أيضاً إحساسه بتوالي الليل والنهار.. مشرق الشمس ومغربها.. لكن عباساً كان يستيقظ دائماً في الفجر، واليوم أفاق قبيل انعكاسات الظل المموَّه بالزرقة الباهتة ليجد لسانه وقد تشقق عطشاً وامتدت يداه تبحث عن الزمزمية ليجدها وقد فرغت تماماً فراح يلعق حجارة السفح الجرانيتية الملساء التي بقيت عليها قطرات الندى قبل أن تشق الأفق تلك الشمس الضارية لتفتك بكل السوائل حتى دموع القهر لحظتها خالجة لأول مرة إحساس الندم فمهما كانت تجربة المعتقل شاقة ومهينة إلا أنه كان يتمتع على الأقل بحمامه اليومي بـ «الدش» أو بخرطون المياه بأضعف الإيمان.. أتراه قادراً على النكوص؟ ولو استطاع في أي اتجاه يسلكه وقد استدارت التبة واستدار معها الوادي وباتت الدروب وقد طمسها سفى الرمال. ولعله أيقن في تلك اللحظة أنه إذا واصل السير في اتجاه الغرب وترك الشمس خلفه فسيصل إلى نقطة البداية عند بوابة المعتقل ورنا بركن عينه إلى حيث رقد رفيق التبة فوجده كما هو وحباً نحوه ليتحسسه فوجد سخونة الحمى قد انحسرت وحل محلَّها عَرَقٌ غزير وتحول احتقان الوجنتين إلى شحوب بارد وهاجمه لأول وهلة احتمال أن يكون شوقي قد مات صريع الحمى فمال

بأذنه على صدره يتلمس أي صوت فأحس بدفء نفس يصدر ويطمئنه إلى أن رفيقه ما زال على قيد الحياة ومن بين الجفنين أفترت العينان عن حركة طفيفة بدت مقدمة لظهور تلك النظرة الممتلئة بالعبث والمجون التي كانت تلمع كلما أفاق شوقي من نومه أو غيبوبته.

لم ير في وجه شاعره الحزين غير تكوينات سيريالية لوجه غريب لا يعرف صاحبه فقال لنفسه بعد هنيهة ستصفو الرؤية ويتعرف على الموجودات حوله. ولكنه تعجب في حواره الصامت مع وعيه لانقطاع الأمطار ومد أصابعه ليلمس جسده فلم يجد بللاً. كانت كل ثيابه جافة نظيفة وفوقها تغطية ملاءات بيضاء بلون النهار وراح يحدق شاخصاً ببصره إلى ما حوله ليجد أشخاصاً يرتدون جميعاً معاطف بيضاء ويفحصونه بدقة واهتمام. وبقي يراقبهم لفترة ثم قاده الوعي إلى إدراك جديد.. ربما أنقذته تلك القافلة التي مرت قبل هطول الأمطار ولكنها اختفت عن ناظريه فجأة وراح هو ينصت إلى أنغام ذلك المغني في خيمة الجنة التي نصبت في العصر الطارقي (ربما كان ذلك منذ ألف عام) أراد أن يجلس فجلس دون أي اعتراض من المحيطين به بل رآهم جميعً يبتسمون وينظر بعضهم إلى بعض وكأنما يتبادلون الفرجة على مخلوق فضائي.

حاول أن يتلمس بينهم رفيقه الشاعر الحزين وحين أخفق في العثور عليه طمأن نفسه بأنه ربما يطرق الباب بعد قليل.

## (25)

## خط الشفق

من النافذة العريضة رأى القوس الملوم يحمل الكون على ظهره ولم يتبين حقيقته بشكل قاطع: أهو ميسم الشفق أم قوس قزح؟ ولم تكن هناك شمس والفضاء خارج القوس يكتسي بلون رمادي داكن يرجح كفة الاحتمال الثاني..

لا بد أن الغيوم المتراكمة قد أغرقت الأرض بالأمطار وأن القوس الملون هو إشارة لانتهاء العاصفة خاصة وأن الثقوب التي افترت عنها ستائر الرماد قد سربت فلول الشمس الغاربة وكانت كافية بأن تشيع تلك الأضواء التي ترجح كفة الشفق.

في ذهنه كان الانشغال بمرئيات المشهد الطبيعي مقدمة لحلول مرحلة الصفاء الذهني التي حاول فيها أن يلم الشتات ويجمع مفردات الذاكرة المبعثرة ثم أيقن أنه لن يستطيع أن يفعل ذلك إلا بعد أن يعرف أين هو الآن؟ وهل تكون هذه الغرفة المتشحة باللون الأبيض غرفة حقيقية أم هي بدورها

مجرد حلم من أحلام تلك الحمى المراوغة التي تنتابه كلما اقترب من ملامسة الواقع وظلت عيناه معلقتين بنصف الحائط الزجاجي المطل على الممر خارج الباب يتابع حركة الأشخاص فيه وكلهم يتراؤون له كالأطياف.. أهو في مشفى أو مصحة في مكان ما؟

إنه لم يتعرف على أحد ممن دخلوا عليه يتحسسونه ويربتون على رأسه ويبتسمون له، ولم تربطه بأي وجه من الوجوه التي أطلت عليه أي بادرة لذكرى قريبة أو بعيدة (..أين أنت يا عباس؟ أين أنت يا شاعر الرحلة المستحيلة؟) الوحيد الذي لا يمكن أن تتشوَّه صورته في الذهن..

في تلك اللحظة انبثقت الحقيقة من طاقة نور انفتحت في ذهنه متوافقة مع اندحار اللون الرمادي في الخارج وإطلالة أنوار شفق كامل.. الآن يدرك أن ملامح وقسمات وجه الشاعر الحزين هي نفسها قسمات عادل ابن عمته وحين أيقن من إنبلاج الصبح في رأسه سقط لتوه في غيبوبة نوم جديد.

كانت نهير تنتظر في الغرفة الملحقة بمكتب «الباشا» وعقارب الساعة المعلقة أمامها على الحائط تتحرك في بطء أضاف إلى توترها إحساساً بالقلق والملل معاً، وكأن دهراً قد انقضى منذ جاءتها تلك المهاتفة تستدعيها بلقاء قريبهم صاحب المنصب الكبير في أسرع وقت، وخالجها الشعور بأن الأمر يتصل بقضية اختفاء شوقي رياض ولم تخبر أحداً بأمر هذا الاستدعاء ربما لأنها خشيت أن يسفر اللقاء عن إحياء أمل

سرابي جديد يقودها بعد حين إلى إحباط آخر سيؤدي بالضرورة إلى تقوية حملة الضغط التي تمارس عليها منذ فترة لقبول خاطب جديد ظهر فجأة محملاً بكل المزايا والصفات التي تجعل من رفضه نوعاً من «البطر ورفس النعمة» خاصة وقد تحمست الأم له من اللحظة الأولى وشاركتها في حماسها بناتها الأخريات وبعدها كانت نهير تخفي عنهن أي تطورات تلوح في الأفق بخصوص قضية شوقي.

أفاقت من تداعيات أفكارها على صوت مدير المكتب يعتذر لها عن التأخر ويدعوها للمثول في حضرة الرجل الكبير الذي استقبلها واقفاً مرحباً، وبمجرد جلوسها بادرها معلناً أنه قد توصل أخيراً إلى معرفة مكان الدكتور شوقي رياض. شعرت ببرودة لاذعة تصيب أطرافها جميعاً وبما يشبه ألماً يعتصر معدتها وصوت الرجل يتهادى على نبرة الإحساس بالانتصار والتباهي بالنفوذ والقدرة:

ـ تعلمين أنني إذا وضعت أنفي في أمر ما فلا بد أن أحقق ما أريد والواقع أن قصة الدكتور قد أثارت فضولي إلى حد بعيد وتعجبت كيف يحدث ما حدث لرجل طيب السيرة يشغل موقعاً جامعياً محترماً وصمَّمت أن أصل إلى الحقيقة وقد أخبرتك مرة أن الرجل رهن الاعتقال بسبب صلته بجماعة من الجماعات المتطرفة، ولا شك أنك تفهمين وتقدرين ما يحدث في مناخ الخطر من حماس يقتضيه حرص الأجهزة

الأمنية على استتباب الأمن والحفاظ على سلامة ومصالح الوطن (وماذا بعد خطبتك العصماء؟ ألا تستطيع أن تطلعني على ما توصلت إليه مباشرة لأتخلص من كل هذا التوتر الذي يوشك أن يصيبني بالانيهار؟) وكان هو يواصل حديثه غير عابىء.

وأدركت في لحظتها أن هناك خطأ مأساوياً قد حدث وإن صاحبنا شوقي رياض كان ضحية لسوء تفاهم مؤسف بسبب تشابه اسمه مع اسم ناشط خطير من نشطاء تنظيم إرهابي له صلة موثقة بالتنظيم الشهير القابع في جبال أفغانستان، وقد دوَّخ هذا العنصر قوى البحث والمخابرات في أكثر من عشر دول من دول المنطقة والعالم.. ولك أن تحمدي الله ألف مرة.

صمت للحظات وكأنه ممثل قدير يلتقط أنفاسه قبل أن يلقي المفاجأة المسرحية الكاملة بعدها واصل ابتسامته المتباهية تملأ وجهه: كان من الممكن أن تنتهي المأساة بنهاية حياة شوقي، ولولا أن تدخلت العناية الإلهية حين ألقي القبض على شوقي رياض الحقيقي في بلد من بلاد أوروبا الغربية وهو يتهيأ لتنفيذ إحدى العمليات، فقد تبين للجميع أن الرجل الذي اعتقل وهرب من معتقله ليضل طريقه ويوشك على الهلاك في فيافي الصحراء مجرد رجل بريء لا شأن له بالسياسة ولا الجماعات ولا الأحزاب، وفوراً انطلقت كل فعاليات البحث والإنقاذ تجوب الصحراء براً وجواً حتى

عثروا عليه أخيراً وأودعوه المستشفى ليعالج من تداعيات حمى شديدة كادت أن تقضي عليه.

وصمت وقد اتسعت ابتسامته وكأنه ينتظر منه المكافأة وربما (الحُلوان)!!

## (26)

## الرحيل إلى الغسق

خرجت من لدن الرجل المليء بالترهات يخامرها إحساس بالخيبة يصل إلى حد الغضب وأدهشها هذا الإحساس، فالمفروض أن الرجل قد حمل لها أخباراً سارة ولكنها لم تأخذه على مأخذ الجد لسبب لا تعرفه.. فقط لم ترق لها الحكاية التي سردها على مسامعها.. شوقي رياض حقيقي وآخر يشاركه في الاسم وصدفة أدت إلى لبس مؤسف..!

هي تعرف من خلال ما مرت به في رحلة البحث عن الرجل المفقود أن التأكد من شخصية المطلوب لا يكتمل إلا بمنع الالتباس إذا تطابقت الأسماء بالرجوع إلى اسم الأم فمن المستحيل أن يتشابه شخصان في الاسم الرباعي وأيضاً في اسم الأم لدى كليهما!

أضاع عليها الرجل نصف نهار كامل لكنها لم تأبه بضياع الوقت بقدر ما أزعجها من ضياع الأمل.. ألا يجدر بك

بعد هذا كله أن تطوي الصفحة وتنصرفي إلى شؤون أخرى كثيرة في حياتك منها على الأقل ذلك الرجل الذي تقدم خاطباً ويتحمس له الجميع؟ هزت رأسها نفياً وهي تقود سيارتها إلى غير غاية محددة وقد تملكها نوع من الوجوم النفسي أفقدها القدرة على التعامل مع الأمر بعقلانية الذهن المفتوح! هي تدرك تماماً أنها ليست خالية البال أو حرة الإرادة ربما لم تغرم بشوقي ذلك الغرام الملتهب الذي يؤجج نيران المشاعر وينضجها على قالب التفاني والولاء المطلق كما يحدث في قصص الحب التي قرأتها في الروايات الرومانسية الشهيرة، وهي لم تحلم أبداً بأن تكون ليلى العامرية أو عبلة بنت مالك ولا تخيلت أنها يمكن أن تكرر صورة جولييت أو مارجريت جوتييه أو اسكارليت أوهارا وبالتالي فلم يكن من بين أحلامها فارس يشابه أولئك الذين شاركوا هاتيك العاشقات الشهيرات قصصهن التي ذاع صيتها وصارت مضرباً للأمثال.

أبداً لم تكن تجربتها مع شوقي من هذا النوع، ولكن تسللت عاطفة الارتباط بالرجل بهدوء ونعومة حتى أنها لم تعترف بوجودها إلا بعد أن تمكنت منها وفات أوان الاستدراك أو التراجع وطبقاً لنفس القانون الذي حكم البداية ترى نفسها الآن عاجزة عن وضع النهاية وقد ثبت لها أن شوقي لم يعد مجرد رجل مرَّ كالطيف وشغل حياتها لأيام ثم مضى وترك معظم مساحة الصفحة بيضاء ليمكنها أن تخط فيها اسماً جديداً أو تكتب أول جملة في قصة أخرى وكان هذا الوجوم الذي يعبر بشكل أو بآخر عن حالة من الارتهان للآخر

يغضبها إلى درجة الثورة والسخط على الذات «أكرهك يا شوقي رياض وأكره ذكري اليوم الذي ولد فيه وعيي بوجودك في حياتي وأعلم أنك لم تكن غير رد فعل التمست فيه عوضاً عن تجربتي التعسة التي أشقتني وأفسدت مطلع شبابي.. أكرهك وأكره استسلامي الأبله لعواطفي تجاهك.. وأكره إصراري على البحث عنك؟».

أفزعها أن تباغت نفسها وهي تصيح بلفظ الكراهية ودموعها تنهمر في نفس الوقت. وبينما كانت تتهيأ للدخول من الشارع الكبير إلى شارع سراية الباشا لمحته وهو يخطو خطوات تائهة متلعثمة على رصيف الشارع وعصاه تدق الأرض بغير انتظام.

ـ شيخ عادل! هتفت وهي توقف السيارة محاذية للرجل الذي أوقفه الصوت وكأنه يرتطم بحائط.. ترى هل خانته أصدق حواسه فأخطأ السمع؟ استدار بجسمه نحوها وتمتم بصوت خرج كالحشرجة: نهير هانم! لم تجبه؛ فقط أحس بيدها تمسك معصمه وتقوده في رفق: اركب. وعند ركن قديم على نيل حلوان جلسا ولأول مرة يظل الرجل مستمعاً فقط وتتكلم هي بغير انقطاع.. تحدثت عن كل شيء: عن حياتها منذ تنبه وعيها للعالم وعن دراستها وأهلها وحياتهم الأولى في سراية الباشا ثم تفرقهم سنوات لظروف زواج البنات وارتحال الأب والأم إلى الخارج ثم عودتهم ليتركهم الأب وتفشل زيجتها وتستقر مع الأم في السراية القديمة.. تحدثت عن

الحديقة وشجرة الجوافة وشرفة الطابق الثاني في البيت المقابل! واختلط الحديث عن الذكريات بالحديث عن الأحلام والأوهام والملل حتى وصل إلى حديث الساعة الماضية عن الكراهية والتمرد على ما سمته عبودية المشاعر.

خُيِّل لعادل في لحظة أنها لا تتحدث معه ولكنها تتحدث عن نفسها وعن شوقي فقط وأنه لم يكن بالنسبة إليها غير حائط للمبكى فاضطرمت في داخله مشاعر الإهانة والزراية ولكنه آثر أن يبدو كريماً معتزاً بنفسه فخرج أخيراً عن صمته الذي التزم به وقاطعها في رفق لم يمنع ارتجاف النبرة: هل انتهيت؟

فاجأها سؤاله فكفت عن حديثها المتدفق وانتظرت لحظات كمن تفيق من نوبة وهمست: آسفة يبدو أنني نسيت نفسي وثرثرت كثيراً. اعذرني فقد رأيت في لحظة نفسية غير عادية وأنا على وشك الانفجار ولم أكد أراك حتى أحسست بأنك منقذي من هذه اللحظة وأنا مدينة لك بالشكر وإن لم يكن الأمر جديداً عليك فهكذا كنت دائماً.. الصديق الموجود في اللحظة الموعودة! لم يدر أيسعده ما قالته أم يزيده حزناً على حزن ولكنه آثر أن يمضي في الحديث لغايته.

- ألم تظلي للآن تتهمينني بالحقد على ابن خالي والدس له عند جهات الأمن؟.

كانت نبرته مفعمة بالحزن والمرارة لدرجة أشعرتها

بموجة من الإشفاق عليه فرق صوتها وأجابته بأن لا وأنها نادمة حقاً على ما تفوَّهت به في لحظة الغضب اليائس.. والآن.. واصلت لتروي له ما حكاه الرجل المسؤول في نفس الصباح عن شوقي وسألته عن رأيه في الحكاية وبعد لحظة صمت طالت تكلم الشيخ عادل.

ـ ربما كنت «حدوتة ملتوتة» كما تصورتها ولكن أهم ما فيها أن البشرى حقيقية وأن شوقي أوشك على الرجوع.

في غرفة الأطياف البيضاء كان الليل قد حل وهمس الطيف في أذنه: مبروك ستخرج غداً.

## (27)

## مواسم الشمس

أوصلته السيارة التي لم يتعرف على أحد فيها إلى ناصية الشارع وحين لامست قدماه الأرض كانت الشمس تغطي كل المساحات حتى خيل إليه أن أشجار الحديقة في سراية الباشا لا تترك تحتها شيئاً من بقاع الظل ولكنها لم تكن شمساً صيفية قائظة، فهناك نسمات متقطعة تتيح له أن يتنفس بسهولة نظر خلفه وكانت السيارة قد انفلتت هاربة، ظل مكانه لا يتحرك وهو يحاول جاهداً أن يحدد موقعه من المكان وموقع المكان في ذاكرته، هو بالطبع يعرف أن هذا هو البيت وتلك هي السراية لكن قوة غامضة تثقل قدرته على الحركة متشاغلاً عن عجزه. راح يراجع ما في جيوبه وكأنه يبحث عن شيء.

هي نفس الحلة التي كان يرتديها يوم سقط في الفخ ونفس رابطة العنق ونفس الحذاء، وتملكته رغبة ملحة في أن يبحث عن مرآة وعن صحيفة. يريد أن يعرف هل هو نفس

الشخص الذي كان يطالعه كل يوم في مرآة الحمام وهو يحلق ذقنه ويريد أن يعرف أكثر كم لبث في غيبته. حفزته الرغبة فخطا ليعبر الناصية إلى بائع الجرائد على الناصية الأخرى.. انتابته دهشة يسيرة مع بعض الخوف حين لقيه البائع مهللاً: أستاذ شوقي الحمد لله على السلامة.

أربكه أن ينظر إلى تاريخ اليوم الموجود في ترويسة الصحيفة.. وكان يشير إلى اليوم والشهر والسنة ولم يعن له هذا شيئاً لأنه لا يتذكر تاريخ اليوم المشهود حين دخل متاهته فأنّى له أن يحصي الأيام وهو لا يذكر بدايتها؟.

وبقي السؤال يتأرجح في رأسه لكنه تحرر من جموده وسار بجانب سور الحديقة المقابل للبيت ومن خلال قضبان السور كانت عيناه تبحثان عن شجرة الجوافة. لم يعد هناك مقعد ولا كتاب مقلوب ولا نهير.. في لحظة أشرقت الذكرى وتمثلت أمامه بكل تفاصيلها حين رآها لآخرة مرة وداهمه حنين جارف لأن يراها فعاد إلى الشارع الكبير واتجه إلى بوابة الحديقة ومنها إلى باب الفيلا.. توقف لحظة وقد تنبه إلى ما لم يلحظه عند النظرة الأولى.. صمت مريب يرين على المكان وكل النوافذ وضلف الشرفات مغلقة وأوراق الشجر المتساقطة تملأ الممشى وتتقصف تحت قدميه. حتى العصافير لم يبد لها صوت.. أحس بثقل يرسخ في جوفه وببرودة تسري في أصابع يديه.

ماذا جرى وكيف عادت سراية الباشا إلى عهدها السابق

حين تركها أهلها في الرحلة السابقة. إذ سافر الأب والأم وتزوجت البنات وتركوا المكان لتغشاه أنسجة العنكبوت وتعجب من نفسه: كيف يستبق الأمور ولم يطرق الباب بعد ولا أخبره أحد عن شيء محدد؟ وتقدم وضغط على زر الجرس بقوة.. مرة وثانية وفي المرة الثالثة سمع وقع خطوات فانبعثت في داخله فرحة ارتياح ولكنها لم تدم إذ أطلت من فرجة الباب المفتوح الخادمة العجوز التي كان يشهدها حين تقدم له التحية في المرات التي تردد فيها على المكان.

رحبت به بعبارات مدغمة وحين سألها عن الهانم وابنتيها أتاه الخبر اليقين.

- رحلنَ يا سيدي.. سافرنَ مع قريب لهنّ إلى خارج مصر!

تسمر مكانه كشخص أصابته لعنة الآلهة في الأساطير القديمة وقبل أن يستدير خارجاً كانت الخادمة التي غابت للحظة قد عادت وفي يدها مظروف كتبته له.

- تركت لك هذه الأمانة!

حمل المظروف عطرها ولكنه لم يشاء أن يفضه في الطريق.. فقط رفعه إلى أنفه ثم أودعه جيب سترته لم يكن عادل بالبيت لحظة عودته لكن العمة احتضنته طويلاً وبكت حتى بللت دموعها صدره، كان يعلم أنها تحبه ربما أكثر من حبها لعادل أو ربما خيل إليه ولكنه بكى معها.

ـ ما الذي جرى لك يا «ضنايا؟»

لم يكن لديه ما يرويه لها، فكل الطلاسم والمعميات التي تتداخل وتتقاطع مع المشاهد المبتورة لرحلته الضائعة لا يمكنه أن تصنع حكاية متسقة مع أي منطق واكتفى بأن يردد على مسامعها ما استطاعه ساعتها من تلفيقات ترضي فضولها وتطمئنها ليستطيع أن يخلو لنفسه في حجرته ويقرأ رسالة نهير ولكنه لم يتمكن فقد فاجأته عودة عادل إلى المنزل.

في الحجرة ذات الشرفة المطلة على سراية الباشا جلسا متواجهين وقد تشبثت يدا عادل بيديه ولما تزل دموعه تتساقط.

لم أشعر بعمق حبي لك حتى رحلت في تغريبتك، أنا لا أريد منك أن تحكي لي تفاصيل ما مر بك، فقد تخيلته ولا أظن أن تخيلته يختلف عما حدث في الواقع وأنت تعرف قدرتي على تبصر واكتناه حجج المرئيات.

هتف شوقي مازحاً: شيء لله يا شيخ عادل.

لكن عادلاً لم يقبل المزحة وواصل بحرارة من يؤمن بنفسه:

ـ لا تحول كلامي إلى هزر سخيف وصدقني لقد رأيتك في كل مراحل المحنة التي مرت بك وعشت معك في أقسى لحظات كربك ومعاناتك وأستطيع أن أحكي لك كل ما تحاول أن تنساه وتهرب منه.

ـ كفاك بالله يا ابن العمة فليس هذا وقته ولست في حالة تتيح لي أن أستعيد ذكريات ما عشته حتى صباح اليوم.

قبَّل عادل رأس شوقي ثم نهض وخرج بعد أن واعده على لقاء في المساء وأخرج شوقي خطاب نهير.. ارتجفت أصابعه وهي تفتح المظروف.. ثم توقف وقد باغتته العاصفة. أحقاً كان عادل هو الشخص الذي جالسه منذ برهة؟ دقت أجراس كثيرة ثقيلة وانداحت أضواء الشمس عن أرض الشرفة وفي رأسه يجلجل هاتف النهار يحمل له سؤالاً عصي الجواب:

لا لم يكن هو عادل.. ألم تعرف عليه بعد؟.

ألم تكتشف أنه هو عباس الشاعر الحزين؟.

## (28)

## كلام الليل

كان الخط دقيقاً والحروف صغيرة منمنمة كوشي على منديل قديم.. وكانت أول مرة يرى فيها خطها وأحس كأن أنفاسها تتردد بين الكلمات..

أكتب لك لأول وآخر مرة.. على ضوء قنديل الشرفة ونسمات الليل تدغدغ وجهه وأنامله لا أحس لها ببرد ولكنها تثير حولي جواً من الرومانسية يتسق مع حفيف أشجار الحديقة ونصف قمر يطل من خلف سطح بيتك ولا أعرف ماذا أكتب ولكنك حين تقرأ هذه الرسالة ستكون بالقطع قد خرجت من محنتك وبحثت عني ولم تجدني فغداً أرحل سأسافر مع أمي وخالي رأفت إلى النمسا، هو يعمل هناك كما تعرف في وكالة الطاقة النووية التابعة للأمم المتحدة ودبر الأمر بحيث نعيش معه هناك طالما ظل في وظيفته، لذلك لا أعرف متى أعود إلى مصر مرة أخرى ولا تشغلني مسألة العودة هذه لأنه لم يعد لي هنا من يهمني أمره..

أنا لا أتحدث عنك فأنت الاستثناء الذي كان بإمكانه أن يقنعني بعدم السفر ولا أخفي عليك أنني قد فقدت كل الآمال التي كانت تراودني في لقائك، خاصة بعد أن تحدثت مع عادل في المرة الأخيرة. كم يحبك هذا الرجل وأعترف بأنني قد ظلمته حين اتهمته بأنه سعد لغيابك وربما خطط له وهكذا نحن لا نرى دائماً من الناس إلا الوجه النهاري كما لا نرى من القمر إلا الوجه الذي تسقط عليه أشعة الشمس وربما كان الوجه الآخر أكثر جمالاً وقرباً من الحقيقة.

ولكن ما هي الحقيقة؟ أليس لكل شيء إنسان حقيقة قد تختلف مع حقائق الآخرين؟

وهل تعرف أنت مثلاً حقيقتي؟ وكيف تعرفها وأنا نفسي لا أعرفها كما أنني لا أعرف حقيقتك بل تراني وأنا أكتب إليك الآن لا أعرف إن كان وجودك حقيقة أم مجرد خيال صنعته لنفسي أراوغ به وحدتي وانعزالي.. أجل ولا تدهش فالشهور التي انقضت بعد ختفائك أو اعتقالك أو هروبك أياً كان الأمر قد أصابتني بما يشبه الإغماءة ليس بالمعنى المادي طبعاً وإنما هي إغماءة الروح وقد تقاطعت خلالها الرؤى واختلط الوهم بالواقع وظل هناك سؤال يراودني كلما فشلت محاولة من محاولات العثور عليك أو معرفة مصيرك، كان السؤال هو: أحقاً عرفتك وقابلتك وارتبطت بك مشاعري؟ أم أنك لم تكن أكثر من طيف زائر ألمَّ بحياتي برهة من الزمن ثم اختفى؟ الوحيد الذي كان يؤكد وجودك هو الشيخ عادل، ليس بالكلام

ولا برواية الحكايات ولكن بمجرد وجوده.. كان وجوده يؤكد وجودك..

ولكن لماذا لا يكون هو الحقيقة وأنت الظل.. صنعناه أنا وهو من خيال لا يراه هو وأراه أنا؟

أعرف أنك إذا كنت حقيقة وكنت تقرأ الآن هذه الرسالة فسيحزنك ما أصابني وربما أشفقت علي، ولكنك تستطيع في كل الأحوال أن تساعدني. سنترك عنوان إقاماتنا بالتفصيل مع المربية التي سلمتك الرسالة وقد أعطيتها تعليمات بأن تخبرك بالعنوان إذا طلبته.

تعالَ إذا كنت أنت هو أنت.. إذا كان شوقي رياض حقيقة هو من عرفت وأحببت وافتقدت..!

بقيت الرسالة ترتجف في يده وإن كان لم يستطع أن يتبين ردود فعله تجاه ما قرأ.. لا دهش ولا حزن ولا فرح، فقط مزيد من الحيرة والبلبلة وكان يردد داخله كلمة واحدة: لا أفهم! وقد أعياه الفهم حقاً ولم يكن هناك من يلجأ إليه سوى شريكه في رحلة التيه.

أنصت عادل ساهماً مطرقاً وهو يتابع ما يقرأه له شوقي من رسالة نهير، وحين انتهى وراح يطالبه بأن يفسر له ما سمع ظل صامتاً لا يحيره جواب في جزء خفي من نفسه كان يحس أن الرسالة موجهة إليه وليس للآخر ولكنه لم يفصح عن هاجسه وأفاق على صوت شوقي يتعجل رداً

ـ ماذا تريدني أن أقول؟ الرسالة في أولها وآخرها ليست بها جملة مفيدة هي فقط تطلب منك أن تلحق بها.

ـ ألحق بها إلى أين يا مولانا؟ وما بعد أن ألحق بها؟

ـ تفعل ما كنت ستفعله هنا.. تتقدم لخطبتها وتتزوجها!

لم يرد شوقي لفترة.. ظل صامتاً وقد اكفهر وجهه وانعقد ما بين حاجبيه وبدا كمن فوجىء بما لم يخطر له على بال.. وهذه المرة كان عادل هو الذي يتعجل الرد: هيه.. لماذا صمتَّ يا ابن الخال؟

ـ أفكر يا شيخ عادل! ربما كان ما قلته لي الآن هو المسار الطبيعي الذي يجب عليَّ اتباعه. ولكن كيف أسافر وأترك كل مسؤولياتي والتزاماتي.

بضحكة مبتورة أجابه عادل: أي مسؤوليات والتزامات يا حبيبنا؟..

على قدر ما أعرفه فلم تتمكن حتى الآن من العودة إلى الجامعة وما زالوا هناك يبحثون أمرك وينتظرون التعليمات تأتيهم من الجهات المختصة.

ـ وماذا عن مسؤولياتي الأخرى؟ ماذا عن الحزب والرفاق وما ينتظرني من المهام الجسام؟

سقطت الكلمات في أذني عادل إلى بطنه كالأحجار الثقيلة واكتس وجهه بقناع الصدمة وفغر فاه لا يقوى على

النطق وكان شوقي ما زال يتحدث في تدفق: أو تظن أن ما فعلوه بي سيفت في عضدي؟

أعتقد أنك تعرفني أفضل من ذلك وتعرف أن ابن خالك مناضل عنيد ولا يستطيع أن يتخلى عن واجبه لخوف يساوره من السلطات وليس هو أيضاً ممن يجري وراء قصة حب غامضة.

وتمتم عادل بصوت هامس مخنوق: كنت أظن أنني أعرفك ولكن ما أسمعه منك الآن يؤكد أنني لم أكن سوى حاطب ليل يضرب في الظلام.

## (29)

## قطعة من نهار قديم

حين طرق الشيخ عادل باب الفيلا وفتحته له الخادمة العجوز، اتخذ طريقه دون أن تستوقفه أو تسأله وكأنما كان معتاداً على الولوج إلى الحديقة الخلفية من داخل السراية، وكانت هي تعرف وتنفذ أوامر صدرت لها من قبل، ولم يكن في حاجة لمن يقوده فقدماه تعرفان الطريق بكل تفاصيله وتحت شجرة الجوافة إياها تلمس المقعد في نفس الركن الذي كانت تجلس عليه الغادة الشاردة وجلس بجواره وامتدت يداه، كأنها تبحث عن كتاب نسيته صاحبته ورحلت، وانتابه حنين جارف للأيام الخالية فركن عصاه إلى جانبه وراح يدندن في صوت خفيض بكلمات الأغنية التي كانت تحب سماعها منه.. «يا اللي معايا ومش ويايا.. عمري ما كان لي نصيب في هواك.. تبقى في بعدك مالي خيالي.. وأبقى قربك ولا على بالك» وطفرت الدموع من عينيه.. أتراها كانت تتعمد إيلامه أو كانت تستمتع بكلمات تروي حكاية اليائس؟ قالت له مرة إنه في نظرها إنسان كامل وإن عينيه شديدة الجمال رغم عماه..

ثار عليها ليلتها واتهمها بأنها تسخر منه وأقسمت هي برحمة أبيها أنها صادقة في كل حرف وأن مشاعرها تجاهه لا علاقة لها بالشفقة ولا بالمجاملة وكانت نبرة التهدج في صوتها تبدو له مخلصة وعاد إلى منزله يملؤه شعور بالنشوة والاعتداد بالنفس.. كان ذلك قبل أن يأتي شوقي رياض من أسوان ويعود إلى جلسة الشرفة المطلة على سراية الباشا!

تغيرت الدنيا بين ليلة وضحاها وأحس بها تندفع نحو ابن خاله وكأن مجاله المغناطيسي يشدها فلا تملك من أمر نفسها شيئاً.. ولم يحفل كلاهما شوقي ونهير بما اشتعل في جوف الرجل وأحرق مشاعره حتى أضحت رماداً، وكم كره عادل ضعفه واستلامه قبل أن يكره شوقي أو يحنق على نهير بل لعله قد قاوم أحاسيس الغضب والغيرة إلى درجة الاستشهاد وفي ركن بعيد في أعماقه كانت هناك لذة الإشفاق على النفس والإحساس بالظلم وكان أيضاً كره ظالميه، وتمنى أن يختفي شوقي من الوجود في محيطه ثم خجل بعدها من مشاعره وهو يستنجد بذكريات الطفولة والصبا حين كان هو وشوقي وشقيقه الأكبر شهدي يمرحون ويرتعون في ملاعب الصبا ولكنها ذكريات بعيدة أضعف من أن تواجه عواطف الحاضر الجريحة..

أفلت من ربقة أزمته على صوت شوقي يوقظه رغم أنه لم يكن نائماً: انهض يا مولانا فالنهار يبدو اليوم جميلاً فهيا نجلس معاً في ذلك المشرب النيلي الذي طالما ضمنا في النهارات الشتائية الدافئة.

- هل اختلطت عليك الفصول والأزمنة كما اختلطت عليك حياتتك السابقة بأسرها؟

اليوم هو أحد أيام منتصف الصيف ولهيب آب، ورطوبته يخنقاننا ونحن في منازلنا وتريد حضرتك أن نخرج إلى الشارع؟

- بل أنت من أصابه الخبل والخلط فنحن ما زلنا في منتصف شباط.. ماذا دهاك يا مولانا؟

أصاب الوجوم عادلاً بنوبة صمت مرتعب فحتى الأمس كان يظن أن هذيان شوقي عن الحزب والرفاق والعقيدة مجرد ردود فعل عابرة ومؤقتة للتجربة التي مر بها ولكن الأمر يبدو له الآن داعياً للخوف.. وأي خوف!.. أنه ذلك الذي يسري داخل العروق دماً مثلجاً يصيب الجسم كله برعدة داخلية تهزه حتى يوشك على الإغماء. ترك شوقي نهار قريبه الصيفي القائظ وهرع إلى نهاره الشتوي الدافئ ولم يحس في الطريق بهبة ريح ولا بلسعة شمس..

كان النهار متوازناً يستطيع أن يلحقه بالفصل الذي يريد ولكنه بوغت بسؤال يداهم رأسه: إلى أين تقودك أقدامك؟ أرعبه إدراكه بأنه نسي غايته وطفق يضرب على غير هدى وهو يطمئن نفسه بأن قدميه لا بد وأن تعرفا الطريق طبقاً للذاكرة الحركية وحين وجد نفسه في محطة المترو لم يتردد وقفز داخلها!

كان القطار يسرع وتبدو المرئيات من خلال نوافذه متنوعة ومتغيرة وصاحبنا لا يعرف في أي محطة يجب أن يترك القطار هل تعتمد على ذاكرة قدميك هذه المرة أيضاً أيها المأفون؟

هاجمته نوبة من الضحك ورأى رفاق القطار يرمقونه في دهشة وأصدر لنفسه أمراً سريعاً: كف عن هذا الضحك الأبله وإلاّ ساءت العاقبة وفي نفس اللحظة واكب الأمر خاطر آخر: لم تعد إلا مستشفى الأمراض العقلية بقعة لم ترها ولم تزرها.

في المحطة الموعودة وجد قدميه تقودانه إلى السلم الذي أخرجه إلى الشارع، وكان المشاء قد أطبق (هل قضى نهاراً كاملاً داخل القطار؟ أم أن الزمن في حلوان يختلف عن الزمن في قلب المدينة؟ وأين يقع نصف الكرة الآخر حيث يلعلع نور النهار؟) صعد في نفس المصعد العتيق الذي ينبعث منه ذلك الأنين الذي تعود عليه طوال سنوات وراح يتأرجح وكأنه يوشك على السقوط حتى وصل أخيراً إلى الدور الرابع وكان هذا آخر جهده وعليه أن يصعد على الدرج طابقين آخرين (الذاكرة والحمد لله في أوج عنفوانها وقد تنبه إلى تلك الدرجة المكسورة التي أسقطته يوماً على وجهه) توجه إلى الباب المفتوح ودخل إلى الصالة الواسعة التي تفتح عليها أبواب غرف كثيرة.. هو مقر الحزب وها هو ويصا العجوز يرحب به: أوحشتنا يا شهدي باشا فأين كنت؟

## (30)

## انحسار الظل

كانوا جميعاً هناك خارج باب الحجرة المنفية في آخر الممر وكان هو بالداخل على سريره الخشبي القديم الذي لازمه منذ أيام الابتدائي لم يكن نائماً ولا متيقظاً.. كان على الحافة بين الصحوة والغيبوبة رغم أن الباب كان مغلقاً إلا أن أصواتهم الهامسة تناهت إلى أذنيه:

ـ تقول إنه نائم منذ ثلاثة أيام؟

ـ لم يطلب زاداً ولا ماء.. كان فقط ينهض ليذهب إلى الحمام ثم يعود.

ـ والأطباء! ماذا قالوا؟.

ـ ليس به شيء.. يقولون إن نومه وسيلة هروب من مواجهة الواقع!

ـ كان الستار منحسراً يخفق تحت تأثير نسمات نشطة تأتي من الشرق ولكن الشمس كانت مختفية خلف الأفق

العكسي.. آه لو استطاع أن ينزل إلى الشارع دون أن يحسوا به! فعلها مرة حين أنذره شقيقه الأصغر بأن قوة مباحث تصعد السلم.. يومها خرج إلى الشرفة وأمسك بماسورة المزراب وامتطى متنها إلى الشارع فهل يستطيع أن يكرر الأمر؟.. (لم يعد الحال كما كان ولم تعد قواه تحمل مخاطرات الشباب خاصة وساقه التي سبق كسرها في حملة الاعتقالات الأخيرة لن تستطيع بالتأكيد أن تتحمل قفزه إلى الأرض ولو لمسافة متر واحد!) ولكن.. ما الذي يدفعه هذه المرة للهرب؟ أهم الآخرون.. هؤلاء الذين يتهامسون خارج باب الحجرة؟ وما شأنهم به؟ أنه لا يذكر وجه أحد منهم على الإطلاق.. كلها وجوه باهتة كأنها ماثلة من خلف ستار (أين رياض الأب وأين شوقي وأين العمة وأين الشيخ عادل)؟

في الخارج كانت الزوجة والطفلان يمكثون قرب الباب في حالة انتظار وكان عباس الشاعر الحزين يقف منتحياً جانباً بشقيق الزوجة ربما كان حديثهما الهامس هو ما يصل إلى أذني الرجل القابع في الداخل.. كانت تبكي في صمت وتجفف دموعها ولا ترد على استفسارات الولد والبنت لأنها لم تدر ماذا تقول لهما.. هي نفسها لم تعد واثقة من شيء.. لعله شوقي فعلاً وربما كان شهدي رغم سنوات الحب القديمة في أسوان إلا أنها وقد غمت عليها الملامح والقسمات بعد خروجه من المعتقل الأخير كان وارداً أن يكون الأخ هو الآخر وأن يكون هذا الآخر هو الحقيقة، ولعلها تكون هي من سقطت في الغيبوبة (يؤكد لها الطبيب أن هذا الاحتمال مستبعد تماماً)

وإن لم يكن كلامه قاطعاً بحقيقة تلمسها وتطمئن إليها. وحين شاهدته يقترب من الحجرة في جولته المعتادة هبت لتلاقيه: اسمح لي يا دكتور أن أدخل معك.. أريد فقط أن أنظر في عينيه بعدها لن أسألك عن شيء. وأومأ الرجل برأسه موافقاً وطلب منها أن تصحبه ودخل ليجد السرير خالياً ولا أثر هناك للمريض توجه فقط النافذة المفتوحة وملاءة سرير مربوطة إلى ماسورة المزراب! كان المكان الوحيد الذي رجحت أن يكون زوجها قد ذهب إليه هو بيت العمة.. وكان في انتظارها الشيخ عادل يجلس مكتئباً وقد تقوّس كتفاه وبدا وكأنه تمثال للإنسان الشقي يقترب كثيراً في شكله من تمثال المفكر لرودان سألته وأومأ إليها نحو سراية الباشا: ستجدينه هناك! ألم تعلمي أنهما قد تزوجا؟

في حديقة السراية وتحت شجرة الجوافة كانا يجلسان متجاورين وكل منهما يقرأ كتاباً بين يديه وحين رآها هش لها وهتف بلهجة ترحاب ودود: أهلاً، أين شوقي؟ ألم يأت معك؟ بينما طالعتها تسير بابتسامة يملؤها الفخر والتيه.

- تزوجنا بالأمس فقط.

انحسر الظل وأدركت أنها إنما تنظر إلى شهدي فالعلامات الفارقة بين الشقيقين تبدو الآن واضحة قاطعة أيخامرها فقط إحساس غامض بالقلق (كانت تعرف أن شهدي مات منذ سنوات في المعتقل.. فكيف يتسق الأمر).

لم يكن هناك من تلجأ إليه ليحل لها أحجية الألغاز

المتقاطعة غير واحد من الاثنين.. الأب رياض أو الشيخ عادل! هي لم تر الأب طوال حياتها وحتى بعد أن تزوجت وأنجبت.. كان الأستاذ مجرد صورة باهتة معلقة في حجره مكتب زوجها لرجل أربعيني أشهب ناعس النظرات وسمعت عنه الأخبار والحكايات التي تتفنن في رسم صورة لمناضل ثوري أرثوذوكسي لا يساوم ولا يهادن. وبما أنه كان بالنسبة إليها مجرد شبح ولم تتمكن من العثور عليه (قيل لها في البداية إنه مات وقيل لها بعدها إنه هاجر ويعيش في أوروبا الشرقية ثم استقرت الأقوال عند حكاية أنه لم يبرح المعتقل منذ سنوات طويلة وأنه كلما أفرج عنه يعاد أعتقاله في اليوم نفسه وبالتالي لم يعد هناك إلا الشيخ عادل.. لم يكن لدى المغني الضرير الكثير ليقوله فقط هز رأسه يميناً ويساراً ثم تمتم بآية من القرآن (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا).

بعدها صمت لحظات ثم فك عقدة لسانه:

المعرفة يا قريبتي ليست دائماً نعمة.. النعمة المطلقة هي النسيان! ألم تلاحظي أن كلمة إنسان مشتقة من النسيان؟ أي أن الإنسان حيوان يتمتع بالقدرة على النسيان وأنه لولا هذه النعمة ما استطاع أن يعيش وأن يتحمل أوزار الأيام المتراكمة والخطايا المتلازمة؟

أعرف أولاً وبعدها أطلب نعمة النسيان.

ماذا تريدين أن تعرفي؟ الشك يملأ قلبك منذ البداية وتعلمين أنك تزوجت من الأخ الخائن الذي وشى بأخيه

وأورده مورد الهلاك ولكن إذا سألتني من منهما الخائن ومن الضحية فما أظنني بقادر على إعطائك الجواب الصحيح ربما كان الأكبر أو لعله الأصغر.. وقد يكون شهدي هو شوقي صدقيني فأنا لا أستطيع التفرقة بين صوتين يصلان إلى أذني صوتاً واحداً وأنا كما تعرفين لا أرى.. ألمس الأشياء فقط وقد تحسست الوجهين ولم أجد فارقاً يميز أحدهما عن الآخر!

تركته وسارت في طريقها لتبحث عن الطفلين وحين رأتهما ينتظران على محطة المترو أيقنت أنها ستجده هناك.